عماد الدين زنكي

٤٧٧ ـ ٥٤١ هـ

١٠٨٣ ـ ١١٤٧م

عبد الحميد العاني

الدائرة العربية 1968

نسخة زاهية غير كاملة

هيكل البحث

٢٥) زنكي يحاصر دمشق ، للمرة الثانية ، ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

٢٦) زنكي يملك قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

٢٧) زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م

٢٨) زنكي والاكراد الهكارية ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ ـ ١١٤٣ م

٢٩) زنكي يملك عانـة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

٣٠) توتر العلاقات بين زنكي ومسعود ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

٣١) زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

٣٢) زنكي والرهـا ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ ـ ١١٤٥ م

٣٣) زنكي يحاصر قلعة البيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

٣٤) مقتل نصير الدين حقر ، نائب زنكي في الموصل ، ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

٣٥) زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م

٣٦) زنكي يحاصر قلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ ـ ١١٤٧ م

٣٧) مقتل عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٧ م

٣٨) سيرة البطل عماد الدين زنكي :

ا) خلقه (اوصافه الجسدية)

ب) اولاده

ج) سياسته

د) زنكي والدين

هـ) زنكي وعمارة البلاد

و) زنكي والادارة

١ . المقدمــــة

لعل من اصعب ما يجابهه طالب ان يتصدى لبحث لم يوفه المؤرخون حقه من الدرس والتنقيب ، او لدرس شخصية من الشخصيات الـتي طغى عليها التاريخ ، ومحا آثارها الزمان ، فيحاول هو بما لديه من المصادر ان يلّم بها ويبرزها الى الوجود واضحة .

لا اريد ان اقول ان بحثي في عماد الدين كان مثل هــذا العمل ، او ان شخصية عماد الدين نفسها هي في هذه الدرجة من الظلمة كلا . فان عماد الدين من اولئك الابطال القلائل الذين استدعوا انتبــاه المؤرخين ، واحيطوا بشيء من العناية والعطف . ولكن جميع ما كتب حولــه لا يوفيه حقه ، وليس هو من التقصي العلمي بمكان ، ان هو الا نتف جمعها الباحثون المحدثون من هنا وهناك وجعلوها في قالب موّحد ، الا انه درس بعيد عن ان يكون في مصاف الدراسات العلمية النقدية ، ولا يزال عماد الدين يحتاج الى من يكرّس له شطرا من اهتمامه ، فيقبل على الروايات التاريخية بالدرس والنقد العلمي ، ويمحّص اخباره ، ويحاول استخراج ما ضاع منها في بطون التاريخ حتى يخرج لنا صورة واضحة وصحيحة عن هذا البطل المغوار .

وكنت وددت لو اتيحت لي الظروف فأقوم بهذا الدرس الذى اتطلبه من غيرى ، الا ان ضيق الوقت حال دون ذلك ، ومنعني من ان اذهب بالدرس والبحث الى آخر حدودها . على انني وان لم تقدر لي الظروف مثل هذا البحث المستقصى ، فانني فخور في انني قد اوضحت في هذه الصحائف المعدودة معالم تاريخ عماد الدين ، والى احاطته بشيء من الاهتمام والعطف الخاصين ، حتى توفقت بما اتيح لي من الوقت القصير ، ومن المصادر القليلة ، الى اخراج صورة عن زنكي ان لم تكن كاملة ، فهي محاولة ارجو ان تكون موفقة .

ولا يفوتني في هذه المناسبة ان اذكر بكل اعجاب وتقدير ان ساعدى الايمن في هذا البحث المتواضع كان استاذى الدكتور قسطنطين زريق الذى كان يرشدني بين الفينة والفينة ، ويعيّن لي المآخذ والمراجع ، وينير لي

الطريق . فأنا مدين في بحثي الى جهود الاستاذ زريق ، ومدين ايضا الى عطفه الذى احاطني به ، والى نوره الذى نوّرني به ، لذا فأني اضع اسمه في مقدمة البحث ، محاطا بهالة من التقدير .

ولا اكتم القارئ أن معظم ما استندت اليه من المصادر ، المصادر الاولية ، وذلك حسب ما يتطلبه العلم الحديث ، والفن التاريخي ، اللذين يتطلبان من طلابهما الرجوع الى الاصل دون الفرع ، لان الاصل اصفى واصلح ، كالماء في نبعه اصفى منه في مجراه .

ولقد اعتمدت كثيرا في اخبار زنكي الخاصة على روايات ابن الاثير في كتابيه : الكامل ، وملوك الموصل ، لسبب واحد رئيسي هو ان والد ابن الاثير كان معاصر الزنكي وكان من اعوانه ورجاله ، ويظهر انه كان يقصّ قصصه لابنه (ابن الاثير المؤرخ) فيأخذها هذا بأمانة ، ويدوّنها في تاريخه ، مخبرا عنها انها عن لسان والده . فأخباره اذن هي اهم من غيرها لأنها مروية عن شاهد عيان عاصر عماد الدين وماشاه وحادثه وحضر بعض حروبه وجالسه .

نذكر الى جانب مؤلفات ابن الاثير ، كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ وهو من المؤرخين المعاصرين القلائل الذين كتبوا عن زنكي ودولة الاتابكة في الموصل ، واذا ذكرنا ان ابن منقذ توفي سنة ٥٨٤ هـ ، وانه من المقربين الى زنكي وابنه نور الدين من بعده ، وانه لازم الاثنين ردحا من الزمن ، اذا ذكرنا كل ذلك ، تبينت لنا قيمة ابن منقذ التاريخية بالنسبة الى بحثنا .

واخيرا اعتمدنا في اخبار حوادث الشام على ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو اقرب المصادر الاولية طرا الى زمن عماد الدين زنكي .

اما فيما يتعلق بالمصادر الثانوية ، فقد كان جل اعمادنا على كتاب (Stevenson) ، وعلى مقالة Zangi في الموسوعة الاسلامية للكاتب Zettersteen اذ انهما من انتاج مؤرخين غربيين ، هما من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بتاريخ عماد الدين ، وهذان البحثان يصلحان ان يتخذا مثالا لوجهة نظر كتّاب الغرب في هذه الشخصية العظيمة .

وفي الختام لا يسعني الا ان اعترف بجفاف الموضوع ، وخلوه
من لذة ممتعة يشعر بها الدارس، اذ ان الموضوع لم يكن سوى بحث في
الفتوح والحروب ، والقتل والاسر ، وما الى ذلك من الاعمال الحربية .

٢٠ لائحـــة المصـــادر

اـ المصادر الاوليـــة

١) ابن القلانسي (+٥٥٥ هـ) ذيل تاريخ دمشق نشر ببيروت ١٩٠٨م

٢) اسامة بن منقذ (+٥٨٤ هـ) كتاب الاعتبار الولايات المتحدة ١٩٣٠م مطبعة جامعة برنستون

٣) ابن الاثير (+٦٣٠ هـ) كتاب الكامل ج ١٠و١١ مصر ـ مطبعة احمد الحلبي ومصطفى محمد ١٣٠٣ هـ

٤) ابن الاثير (+٦٣٠ ملوك الموصل

ب ـ المصادر الثانويـــة

١) العربيـــة

ا) ابو شامة المقدسي (+٦٦٥هـ)	كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النوريـة والصلاحية	القاهرة وادى النيل	١٢٨٨ هـ
ب) ابو الفداء (+٦٧٢)	المختصر في اخبار البشر	الاستانة دار الطباعة	١٢٨٦ هـ
ج) ابن خلكان (+٦٨١)	وفيات الاعيان	مصر ـ بولاق	١٢٧٥ هـ
د) ابن الوردى (+٧٤٩)	تتمة المختصر في اخبار البشر	مصر	١٢٨٥ هـ
هـ) المقريزى (+٨٤٥)	السلوك لمعرفة دول الملوك	مصر ـ القاهرة	١٣٤٧ هـ
و) القرماني (+١٠١٩)	اخبار الدول وآثار الاول	بغداد	١٢٨٢ هـ
ز) الحنبلي (+١٠٨٩)	شذرات الذهب في اخبار من ذهب	عنيت بنشره كلية القدس	١٣٥٠ هـ
ح) علي الحريرى	الاخبار السنية والحروب الصليبية	مصر ـ المطبعة العمومية الطبعة الاولى	١٣١٧ هـ
ط) الغزى	نهر الذهب في تاريخ حلب	حلب ـ المطبعة المارونية	١٣٤٢ هـ

ى) الخضرى　محاضرات تاريخ الامم الاسلامية　مصر ـ المكتبة　١٣٢٦ هـ
ج ٣　التجارية الكبرى

ك) محمد كرد علي　خطط الشام　دمشق ـ المطبعة　١٣٤٣ هـ
ج ٢　الحديثة

ل) جرجي زيدان　تاريخ آداب اللغة العربية　القاهرة ـ مطبعة　١٩٣١م
ج ٣　الهلال

٢) الفرنجيـــة

a) Douglas, Amanda N.

The Heroes of the Crusades.

Boston, Lee and Shepard, 1892.

b) Stevenson, W.B.

The Crusaders in the East.

Cambridge University Press, 1907.

c) Barker,

The Crusades

London, Oxford University Press, 1936.

d) K.V. Zettersteen,

Encyclopaedia of Islam,

"Zengi"

Vol. IV.

e) M. J. de Goeji

Encyclopaedia Britanica,

"Caliphate"

Vol. V, Edition 11th.

٣٠ عصر عماد الدين زنكي

لا بد لنا ونحن ندرس شخصية عماد الدين من ان نلقي نظرة على العصر الذى عاش فيه ، وما كان يتمخض فيه من الاحداث العامة ، لكي نضع صورتنا ضمن اطار محدود لا يتعداه ٠ ومن الطبيعي اننا سوف لا ندرس العصر درسا مستقصى بحيث نستوعب جميع تفاصيله وحذافيره ، اذ ان ذلك يخرج بنا عن الموضوع الرئيسي الذى اختطناه لانفسنا ، ولكننا نلقي عليه بعض الضوء ، ونرسم له الخطوط الكبرى ، والحدود الرئيسية التي تجعله واضحا بعض الوضوح في نظر القراء ٠ وأني اعترف من الآن ان عملي في هذا الدرس المقتضب لا يتعدى بضع ملاحظات حول هذا العصر الذى عاش فيه عماد الدين زنكي ٠

ان العصر الشامل الذى عاش فيه عماد الدين هو العصر العباسي الذى يمتد على ما يقارب الخمسة قرون ، منذ ١٣٢ هـ — ٦٥٦ هـ ٠ اين يقع عماد الدين من هذا العصر ؟

لقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العصر العباسي الى اربعة ادوار كل دور يتفق ونفوذا من نفوذ الاعاجم ٠ اما الدور الاول فهو ما يدعوه المؤرخون بدور الصراع بين العرب والموالي ، او دور نفوذ الفرس ، ويمتد من ١٣٢ — ٢٣٢ هـ ٠ يتلوه دور النفوذ التركي ويمتد ايضا على نحو قرن من الزمن ، من سنة ٢٣٢ — ٣٣٤ هـ ثم ظهر على مسرح الدولة العربية عنصر جديد يدعى بالعنصر البويهي ، استلم مقدرات الدولة مدة تقارب القرن ، من ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ ٠ واخيرا ظهر السلاجقة والمغول ، مدّوا ايديهم الى السلطة العليا ، وتمكنوا بما اوتوه من قوة وجبروت من التغلب على العرب وعلى البويهيين على السواء ، فقبضوا على زمام الحكم ، وسيّروا دفة الحكومة على حسب آرائهم ورغباتهم ٠ ولقد دام السلاجقة في الحكم اكثر من غيرهم ، وذلك انهم دخلوا بغداد واستلموا السلطان فيها سنة ٤٤٧ هـ[١] ولم ينزعوا الملك من ايديهم وتذهب ريحهم الا بعد قرنين او اكثر حين سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد هولاكو ملك التتر وطاغيتهم[٢].

---

١٠ زيدان ٣ : ٩
٢٠ زيدان ٣ : ٩

من هذا العصر العباسي الطويل يقع عماد الدين زنكي في دور النفوذ السلجوقي وهو على ما رأينا رابع وآخر الادوار العباسية ٠

والدولة السلجوقية تختلف عما تقدمها من الدول التركية بانها لم تنشأ فرعا للدولة العباسية[١]، وانما قامت بها امة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الاسلامية وفتحتها بالسيف ٠ والسلاحقة يقسمهم المؤرخون الى خمسة اقسام بالنسبة الى السلالات المختلفة التي تفرّعوا اليها ٠ فهناك[٢]:

١) السـلاجقة العظام
٢) السـلاجقة في العراق
٣) سـلاحقة الشـام
٤) سـلاحقة كرمان
٥) سـلاحقة آسيا الصغرى

ويهمنا من هذه الفروع بصورة خاصة ، سلاحقة الشام ، وهم يتحدرون من ابن لألب أرسلان يعرف بـ (تتش)[٣] ٠ وهؤلاء هم الذين كانوا يحكمون البلاد عند ما جاء الصليبيون الى بلاد سوريا ، وقد قاموا على حكم البلاد من ١٠٤٨ — ١١١٧ م ، حين تغلب عليهم الملك العادل نور الدين زنكي ابن عماد الدين أتابك الموصل ٠

ونور الدين هذا هو ابن عماد الدين الذى نحن بصدده ، وكلاهما يمكن اعتبارهما كمؤسسين للدولة الأتابكية في الموصل التي يؤرخ المؤرخون ابتداءها في سنة ٥٢١ هـ

وكما كانت الموصل تحت حكم هؤلاء الزنكيين ، كذلك كانت دمشق تحت سلطة اسرة اخرى من اسر الأتابكة ترجع الى مؤسسها الملك سيف الاسلام ظهير الدين بن طغدكين ، حكمت البلاد الشامية من سنة ٤٩٧ هـ — ٥٤٩ هـ ، حينما انهى آل زنكي حكمها[٤].

---

١٠ زيدان ٣ : ٩ ٢٠ زيدان ٣ : ٩ ، الخضرى ٣: ٤٦٢ — ٤٧٣
٣٠ ابن الاثير ١١ : ٨١ ، الخضرى ٣ : ٤٧٠
٤٠ الخضرى ٣ : ٥٠٤

ظهر السلاجقة على مسرح الدولة العربية ، والمملكة العباسية قد تضعضعت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب في مصر[١] . وكان لهم من القوة والنفوذ ما ضمن سطوتهم وسلطانهم على الخلافة والخلفاء فلم يعد لهذا المركز الكبير في هذا الدور وفي بعض الادوار التي سبقته من المقام الزمني ما كان له في عهد الراشدين او الامويين او العباسيين الاول . بل اقتصر على التمثيل الروحي فحسب كما كان البابا ولا يزال يمثل السلطة الروحية في بلاد الفرنج .

تسنّم عرش الخلافة في هذا الدور تسعة خلفاء هم بالتتابع[٢] : القائم ، المقتدى ، المستظهر ، المسترشد ، الراشد ، المقتفي ، المستنجد ، والمستضئ ، والناصر . وكلهم ذوو شخصيات ضعيفة ما خلا البعض منهم كالمسترشد والراشد والمستنجد .

ولقد اتبع السلاجقة بخلاف البويهيين سبيل تقوية الخلافة في بادئ الامر ، ولكن سرعان ما غير السلاجقة خطتهم وعاد الضعف الى الخلافة . ولكن بعض شخصيات الخلفاء كانت تحاول أن تبرز نفسها بالرغم من هذا الضعف ، وتحاول الظهور الى الميدان بالرغم من العوامل التي كانت تعمل على اخمادها ، ولعل من اجرأهم على ذلك الخليفتين المسترشد والراشد اللذين استفادا من هذه القوة الوقتية التي عادت للخلافة في بدء هذا العهد ، فحاولا ان يحكما بالفعل لا بالاسم ، وان يكون لهما السلطان على السلاجقة . فنازعوا السلاجقة في بغداد وغيرها[٣] ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن ، ولكن كانت الغلبة في النهاية للسلاجقة . وهذه الطفرة التي ظهرت بها الخلافة في هذا الدور لم تكن طويلة المدى ، وهي وان كانت تدلنا على شيء فانما تدلنا على ان قوة الخلافة لم تكن في يد الخلفاء انفسهم ، وانما كانت مستمدة من القوى الخارجة عن الخلافة .

---

١ . زيدان ٣ : ٩

٢ . الموسوعة البريطانية ٥ : ٥٢ _ ٥٣ ، الخضرى ٣ : ٤٧١

٣ . الخضرى ٣ : ٤٦٢ _ ٤٧٣

كذلك حاول المقتفي بعد المسترشد والراشد ان يكون له سلطة فعلية، فحارب دولة بني مزيد القائمة في الحلة، في قلب العراق، وتبعه في ذلك المستنجد، ولكن قوة هذين الخليفتين وبروزهما بعض البروز لم يكن راجعا لمحاربتهما لدولة بني مزيد، وانما يرجع الى ان قوة جديدة بدأت تظهر في غربي البلاد، وحاولت دعم الخلافة العباسية، هذه القوة هي قوة الايوبيين التي اسسها البطل صلاح الدين الايوبي، والتي كان لها القدح المعلّى، واليد البيضاء في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر والشام، واعادتها الى حظيرة العباسيين .

ولقد حاول الناصر كذلك أن يبرز شخصيته وأن يتخلص من نفوذ السلاجقة المحيطين به، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، وانتهت باضطراره الى الاستنجاد بقوة خارجية اخرى للتخلص من السلاجقة . هذه القوة هي قوة المغول الذين لم يهدموا سلطة السلاجقة فحسب، بل قضوا على سلطة الخلفاء العباسيين ايضا، وطووا صفحة التاريخ العباسي نهائيا .

ومما زاد الدولة اضطرابا في هذا الدور ظهور الصليبيين الفرنج الذين هاجموا هذه البلاد، وحملوا خاصة على سوريا وفلسطين، حملات عنيفة هزت الشرق والغرب، ولم يبذل الخلفاء جهدا فعالا في سبيل قمع حركة هؤلاء الصليبيين، والوقوف في وجههم، بل تركوا الحبل على غاربه، فاحدث الفرنج في البلاد ما احدثوه من نهب وسلب، وما زالوا يغيرون من سنة ٤٩٢ — ٥٨٢ هـ حتى اضطروا الى الجلاء بعد ان تركوا في اهل هذه البلاد آثارا اجتماعية، عقلية، روحية، لا تقدر او تحصى !

من يذكر هذا العصر، يذكر الاندلس وقد انحلت وذهبت وحدتها، وانقسمت الى امارات ودويلات، كما انقسمت الدولة العباسية قبلها، وكما تولى امراء الفرس والاتراك والاكراد والعرب على فروع المملكة العباسية، ففروع مملكة الامويين في الاندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان الى امراء اكثرهم من البربر

---

١. زيدان ٣ : ٩ — ١٠

تغلب كل منهم على ما في يده منذ اوائل القرن الخامس للهجرة ،حتى جاءت دولة المرابطين ، ثم اعقبتها دولة الموحدين . وتوالى الانقسام بين تلك الدول حتى اخرج المسلمون من اسبانيا . هذا في بلاد الاندلس .

اما في مصر ، فكانت دولة الفاطميين[١] تناوئ دولة السلاجقة في بلاد الشام وتناهضها .

وهكذا نرى ان العصر الذى عاش فيه عماد الدين عصر انقسام الدولة العربية وانحطاطها ، وعهد تفكك الحكم العربي وانحلاله . هو عصر انقسم فيه الملك العربي على نفسه بحيث لم يعد تاريخ البلاد العربية تاريخا موحدا بل تاريخ دول مختلفة . دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، وكرمان ، والعراق ، والشام . ودولة الفاطميين في بلاد النيل . ودويلات مختلفة في افريقية ، والدويلات المستقلة في الاندلس .

هذا التفكك ، وهذا الانقسام ، فتح المجال امام بعض الشخصيات الفعّالة للتدخل في شؤون الحكم ، والتآمر على الحكام واصحاب السلطان ، ومحاولة بسط النفوذ على ما يليها من البلاد . ولعل من اكبر هذه الشخصيات الفعّالة الأتابك عماد الدين زنكي ، ذلك البطل المغوار ، والشهم الشجاع ، الذى دوّخ الاعداء ، وفتح الامصار ، وبسط فيها السلطان .

ملك عماد الدين حلب سنة ٥٢٢ هـ ، وحماة وحمص ٥٢٣ هـ ، وبعلبك ٥٣٣ هـ ، وعانة ٥٣٨ هـ ، والرها ٥٣٩ هـ ، وحاصر مدينة دمشق العظيمة مرتين ، سنة ٥٢٩ هـ و ٥٣٤ هـ . وفتح عدة حصون وقلاع ، نذكر منها هنا على سبيل التمثيل قلعة صور ، وقلعة بحرين التي ملكها ٥٣١ هـ ، وقلعة شهرزور وقد اخضعها سنة ٥٣٤ هـ . وحاصر عدة قلاع منها قلعة فنك ، وقلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ .

وكانت له مع الروم وقائع وحروب شهيرة ، لعل اهمها تلك الاحداث التي حدثت بين زنكي وملك الروم سنة ٥٣٢ هـ .

---

١. زيدان ٣ : ٩

كذلك كانت له وقائع مع الاكراد، وهم قوم اشدّاء، فما زال يحاربهم ويناضلهم حتى تغلب عليهم وكسر شوكتهم، فملك من الاكراد الحميدية قلاعها سنه ٥٢٨ هـ، وملك من الاكراد الهكارية قلعتهم الشهيرة (الاشب) سنة ٥٣٧ هـ، كما انه أغار على عدة حصون في ديار بكر وماردين وفتحها عنوة وقهرا، كحصون الذوق، وفطليس، وذى القرنين، واخضع عدة بلاد وملكها كخنزة واسعرد وغيرهما .

كل ذلك خلا ما اتصف به هذا البطل الشهم من حميد الخلال، وجليل الفعال، وحسن السياسة وجودة الادارة، والصلاح في الدين والدنيا .

ومن يذكر عماد الدين، يذكر كلمة (أتابك) وهي تركية الاصل، معناها مربي الملك[١]، فكان السلاجقة اذا امتاز احد قوادهم بهذه الميزة، يطلقون عليه لقب أتابك . وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة الى درجة الملك في بعض الاقاليم الاسلامية، واورثوا ابناءهم ملكهم . من اشهر هؤلاء عماد الدين زنكي الذى استقل فى الموصل، واورث ابنه نور الدين الملك من بعده . وسبب بروزه وظهوره انه ينتمي الى اسرة عريقه في البطولة والقيادة . فقد كان والد عماد الدين يدعى (اق سنقر)[٢] كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي، وكان معدودا من كبار القواد، جعله ملكشاه من قواد اخيه تتش، ولما ملك حلب استنابه فيها، ثم التحق بالسلطان (بركيارق) بعد وفاة ملكشاه .

وكان تتش يمني نفسه بملك العراق، فجهز الجيوش ليسطو عليها، وارسل (بركيارق)[٣] اليه الجنود وعلى رأسهم (أق سنقر) فالتقى الفريقان، واقتتلوا، فانهزم من مع اق سنقر، وثبت هو، فأسر ثم قتل[٤].

وقد نشأ ابنه (عماد الدين زنكي) في كنف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكها، واحاطوه برعايتهم، لما كان لابيه من الايادى البيضاء في

---

١. كرد علي ٢ : ١٦، الموسوعة ٤ : ١٢٢٤، الخضرى ٣ : ٥٠٤
٢. ابن خلكان ١ : ١١٠، ستيفنسن ١٢١، الحنبلي ٤ : ١٢٨
٣. ابن الاثير ١١ : ٨٦
٤. ابن الاثير ١١ : ٨٦، ابو الغداء ٢ : ٢٠٤

حفظ بيتهم وخدمته ، فنشأ نشأة عالية ، ورعاية السلاطين تحيط به ، وحمايتهم ترعاه ، حتى ولاه السلطان (محمود) مدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ، ليقوم بحفظها ، واصلاح شأنها ، وجعله أتابك ولده (فروخ شاه) المعروف (بالخفاجي)[١] ومنذ ذلك الحين ، ذاع صيت عماد الدين ، ومنذ ذلك الوقت اشتدت شوكته ، ووطأته على من حوله . فأخذ يناوئ الروم والترك والسلاجقة والعرب . وكان يعاصره في العراق من الخلفاء العباسيين ، المسترشد والراشد وهما كما مرّ معنا من اولئك الخلفاء الاقوياء الذين كانت فيهم حماسة الشباب وحنكة الشيوخ ، فكانا يتوقان الى الحكم الفردى ، أو ان شئت فقل الى بسط النفوذ والسلطان والحكم دون سلاطين السلاجقة ، ولكن الظروف قد ضاقت بهما ذرعا ، وخانتهم قواهم ، وكثيرا ما تخيّب الاقدار آلامال والأمنيات ، فلم يمكنا من تحقيق ما كانا يصبوان اليه من سلطان .

ولقد تداخل أتابك في امر هذين الخليفتين ، واشترك في الخلاف الشهير الذى نشب بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود . كذلك مضى عليه زمن توترت خلاله العلاقات بينه وبين السلطان مسعود حتى تمّ الامر بينهما الى عقد صلح سنة ٥٣٨ هـ.[٢]

وسوف نرى فيما يأتي من بحثنا الشأد الذى بلغه عماد الدين ، والشأن الذى حدث له ، حتى ليحقّ لباحث اطّلع عليه اطلاعا دقيقا ان ينعته ببطل الاسلام ، في القرن السادس للهجرة . وما ذلك الا لانه قد تمكن في عصر الانحطاط والتفكك ، وعهد التفسخ والانقسام ، من أن يجمع قوى المسلمين ، او على الاقل ، ان يجمع شطرا من قواهم ، ويضرب بهم الافاق ، ويجوب بهم البلدان ، ويفتح بواسطتهم الامصار ، ويزعزع بشدة شوكتهم ، ورباطة جأشهم ، عروش الروم ردحا من الزمن ، حتى عاد في زمنه شيئ من العز العربي الى الوجود ، واخذ الفرنج يحسبون لهم حسابا .

ولعل الاستاذ (Barker) محق عندما قال في زنكي ما ترجمته : —

" وعند ما استلم عماد الدين زنكي الحكم في الموصل سنة ١١٢٧ م = ٥٢١ هـ ، بدأت كفة المسلمين ترجح على الفرنج ، ولقد اوجد عماد الدين زنكي لنفسه دولة موحدة تجمع الموصل ، وحلب التي كانت لابيه منذ ١١٢٥ م ، وحوران ، ونصيبين ، وديار بكر ، ومقاطعات اخرى عديدة ![٣] "

---

١ . ملوك الموصل ١١٧ ، ابو الفداء ٣ : ١٦ ٢ . ٢ باركر ٣٤

٤٠ نســبه

هو ابو الجود، عماد الدين زنكي بن اق سنقر الملقب بالملك المنصور[1]. وتتفق جميع المصادر من اولية وثانوية على ان اباه كان يعرف بابي سعيد اق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة والمعروف بالحاجب، جد البيت الأتابكي اصحاب الموصل[2].

كان اق سنقر، والد عماد الدين، مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي[3]. ولما ملك تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي مدينة حلب سنة ٤٧٨ هـ استنابه فيها واعتمد عليه لانه مملوك اخيه[4] ومما تذكره المصادر عن اق سنقر المذكور امر عصيانه على تتش وخروجه عليه، مما اضطر تتش صاحب دمشق يومئذ الى محاربته وجرت بينهما منازعات شديدة انتهت باسر اق سنقر واعدامه في جمادى الاولى سنة ٤٨٧ هـ[5] وان جميع المصادر التي بين ايدينا تتفق على تاريخ وفاة اق سنقر في سنة ٤٨٧ هـ"

ويظهر ان اق سنقر دفن اولا في "قرنبيا" في حلب، ولما ملك عماد الدين زنكي مدينة حلب عام ٥٢٢ هـ نقل جثمان والده الى المدرسة الزجاجية التي انشأها بدر الدولة ابو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب حلب[6].

٥٠ ولادتــه

ولد عماد الدين عام ٤٧٧ هـ، على ما يذكر ذلك ابن خلكان (١ : ٢٧٢)، ومن يلق نظرة على الاصول العربية يجدها قليلة العناية بتأريخ مولده، ولعل السبب في ذلك ان عماد الدين لم يكن في حياته الاولى من الشهرة

---

١٠ ابن خلكان ١ : ٢٧١

٢٠ ابن خلكان ١ : ١١٠، القرماني ٢٧٩، الحنبلي ٤ : ١٢٨، منقريوس ١٨٠ الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤، باركر ٣، ستيفنسن ١٢١ .

٣٠ ابن خلكان ١ : ١١٠، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤، ستيفنسن ١٢١

٤٠ ابن خلكان ١ : ١١٠   ٥٠ ابن خلكان ١ : ١١١، القرماني ٢٧٩، ابن الاثير ١٠ : ٨٦، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤، ستيفنسن ١٢١

٦٠ ابن الشحنة ١٠٩ـ ١١٠

بمكان بحيث يهتم بتدوين تاريخ ولادته كما يحدث لاكثر العظماء الذين تبدأ حياتهم الاولى بالخمول ثم لا يلبثون ان تقوى شخصيتهم ويتسع نفوذهم حتى يصبحوا ابطالا ورجالات تاريخ . على ان من لم يتقصّ تاريخ ولادة عماد الدين، كما هو الواقع ،يذكر ان والده اق سنقر قتل عام ٤٨٧ هـ ،وان ابنه عماد الدين كان حين قتل ابوه له من العمر عشر سنوات فحسب[1] ،مما يدل على ان مولده كان قبل وفاة ابيه بعشر سنوات ،اى في سنة ٤٧٧ هـ؛

ولايته واسط وشحنكية البصرة . الحرب بين الخليفة ودبيس

٥١٦ هـ = ١١٢٢م

ومن المؤسف ان اخبار عماد الدين في حياته الاولى تنقطع الى ان تصل الى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢م ،حيث تذكر المصادر وعلى رأسها تاريخ الدولة الاتابكية (ملوك الموصل) لابن الاثير اقطاعه مدينة واسط وولايته عليها وعلى شحنكية البصرة فيقول " في سنة ٥١٦ هـ اقطع اتابك عماد الدين زنكي مدينة واسط وولى شحنكية البصرة وكان سبب ذلك الامير دبيس بن صدقة الأسدى ، صاحب الحلة كان قد تقدم منها مع الملك مسعود والامير جيوش بك ، فبلغ السلطان ، وانضاف الى ذلك شكوى امير المؤمنين المسترشد بالله منه الى السلطان ، فارسل الى البرسقي يأمره بالانحدار الى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة دبيس فانحدر اليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ،وسار عن بغداد نحو الحلة ، فلقيه دبيس عند نهر بشير فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ،و ..... وعاد الى بغداد من غير قتال . فلما انهزم البرسقي لم يتعرض دبيس الى احد وارسل الى الخليفة انه على الطاعة ....ثم ان السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه وزوجه (خاتون بهشت جهان) والدة اخيه الملك مسعود ،واقام البرسقي ببغداد .... وترددت الرسل بينه وبين دبيس في الصلح فلم يتم ذلك ،فارسل دبيس عسكرا الى واسط وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا

---

١ . الروضتين ٢٧ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ،ستيفنسن ١٢١

معه ، فلما سمع من بها بمسير عسكر دبيس اليهم ، ارسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فامدّهم بالامير التونتاش الابرى وبعماد الدين زنكي ، واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصاقوا عسكر دبيس فهزمهم واسروا اكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين الى دبيس . وأقام عماد الدين بواسط وارسل اليه البرسقي ايضا فولّاه شحنكية البصرة ، وامره بحمايتها فوليها وحماها ، وانتقل اليها واقام بها لحفظها لكثرة تطرّق العرب اليها ، والاغارة عليها مرة بعد مرة . فلما سكنها لم يتعرض اليها احد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما ، وتجنّب دبيس قصد ولايته لعلمه انه لا ينال منها غرضا ، وانفذ عسكرا نحو المداين ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي الى الجانب الغربي عازما على قصد دبيس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين حيث يترك ولايته مع بعدها عن بغداد ، ويقصد المداين وهي الى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها ، وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب . ولما ورد دبيس وعساكره الى المداين وعبر البرسقي الى الجانب الغربي لسير اليه ، ارسل الخليفة المسترشد بالله الى دبيس ينهاه عن العصيان ، ويهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب دبيس ، وحلف ليقصدن بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد ، فكثر جمعه ، فلما علم الخليفة بما كان منه سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قبا اسود وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه بردة النبي (ص) وبيده القضيب ، وعبر في الزبزب ومعه وزيره نظام الدين احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل وقاضي القضاة الزيني . فلما سمع البرسقي بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقائه فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الارض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة احضر البرسقي والامراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة ، وقد تأخر دبيس عن المدائن ، ورتب البرسقي عسكره فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره والامير ابا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقرآن بين يديه ، والمصاحف منشورة ، وتقدم الى اهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر ، فلما تواقفت العساكر حملت ميسرة

دبيس ومقدمها عنتر ابن ابي العساكر على الامير ابي بكر الياسر ومن معه فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر حملة ثانية فكان حالها الاولى واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك حمل في عسكر واسط على عنتر واصحابه واطبقه من خلفه وعاد الامير ابو بكر فبقي عنتر ومن معه في الوسط فاخذوا في اليد وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كمينا ، فلما اشتدت الحرب ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فالقوا نفوسهم في النيل فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل واسر . ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقي وان من بها قد اشرف على الهزيمة جرّد سيفه وتقدم وهو يكبر وقد عزم على ان يباشر الحرب بنفسه فكفاه عماد الدين ، فلما تم الظفر قدمت الاسرى الى المسترشد بالله فامر بقتلهم ، ووقع نساء دبيس وسرايره في الاسر غير زوجته ، ابنة ايلغازى بن ارتق وابنة عميد الدولة بن جهير فانهما كانتا بالحسين. كانت هذه الواقعة في اول المحرم سنة ٥١٧ هـ . وعاد المسترشد الى بغداد[1]

ثم اتفق أن غادر دبيس العراق ولحق بطغرل ، فأمنت البلاد واستقرت الاحوال فيها فارسل السلطان محمود الى البرسقي يأمره بالعودة الى الموصل لمحاربة الفرنج . وولى شحنكية بغداد رجلا يعرف "ببرتقش الزكوى" ، فنزل البرسقي عند ارادة السلطان وعاد الى الموصل عام سبع عشرة وخمسمائة للهجرة ، وكان عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة فارسل البرسقي اليه يعلمه الحال ويستدعيه ليسير معه الى الموصل[2] . وجاء عماد الدين زنكي الخبر باستدعائه فاضطرب ردحا من الزمن وجمع اصحابه وقال لهم "قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم قد يملك البلاد امير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة ببلاد الجزيرة وتارة بالشام ، فبم تشيرون اصنع؟ فقال له زين الدين علي بن بكتكين وكان اوثق اصحابه عنده واكثرهم صحبة له فقال -يامولانا- التركمان تقول في امثالهم اذا اراد الانسان ان يضع على رأسه حجرا فليكون

---

١ . ملوك الموصل ٤٥ - ٥٠

٢ . ابن الاثير ٥٠

من جبل كبير ولكن نحن اذا كنا لا بد وان نخدم الناس فلأن نخدم السلطان اولى [١] . فوقع ذلك الرأى من عماد الدين موقع القبول وسار من البصرة يريد السلطان واقام عنده زمنا ولكنه لم ير منه ما كان يأمله من حسن اللقاء وانفق ما كان لديه من مال ، وكان كلما ضاق به الأمر يقول لزين الدين "يا على قد وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما اردت". [٢] على انه صدف أن خرج السلطان يوما ليلعب بالكرة فدخل الميدان واخذ الجوكان بيده واستدعى عماد الدين زنكى وناوله اياه قائلا له " العب معنا . ثم التفت السلطان الى الامراء وخاطبهم قائلا - اما تستحون يجئ اليكم فلان وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يحمل له دعوة ، والله لقد تركته لم ارسل اليه نفقة ولا اعطيته اقطاعا لانظر فعلكم . [٣] وبالغ السلطان في لومهم لتقصيرهم ثم قال لعماد الدين "لقد زوجتك امرأة الامير كندغدى" وامر له بمال . وكان الامير كندغدى هذا من اكابر امراء السلطان محمد والسلطان محمود ، وكان السلطان محمود قد جعله مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومدبرا لدولته ، وشجعه على شق عصا الطاعة على اخيه طغرل وجمع له العساكر الكثيرة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ شأن كندغدى يعظم وخطره يتفاقم ولكنه لم يلبث ان قضى نحبه في تلك السنة ، مخلفا ولدا صغيرا وزوجة هي التى زوجها السلطان محمود بعماد الدين زنكي [٤] .

٧. اقطاعه البصرة ٥١٨ هـ = ١١٢٤م

ومن اشهر ما تذكره المصادر حول حياة عماد الدين السياسية اقطاعه البصرة عام ٥١٨ هـ = ١١٢٤م . وسبب ذلك انه قد بلغ مسامع السلطان محمود بان العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فامر عماد الدين بالمسير اليها واقطعه اياها [٥] لما كان قد بلغه عنه من حمايته لها في العام الماضي . ثم انه

---

١. ملوك الموصل ، ٥٠ ٢. ملوك الموصل ، ٥٠

٣. ملوك الموصل ، ٥٠ ٤. ملوك الموصل ، ٥٠

٥. ملوك الموصل ، ٥٢ ، "ستيفنسن"

اتى الى السلطان ايضا خبر بان الخليفة قد جمع عساكره كانما هو يريد الحرب فتقدم السلطان الى عماد الدين بمراعاة احوال واسط والنظر في امرها ، فان قصدها جند الخليفة حاول حفظها من غارات العرب ٠ وهكذا كانت لعماد الدين في العراق مهمة مزدوجة ، ولاية البصرة وحماية واسط ٠ فامر عماد الدين الى البصرة واقام فيها واحسن معاملة اهلها ، وامنّهم شر غارات العرب ، وذلك بانه كان يرسل فرقا من جيشه الى اطراف البلاد فيوقعون بالاعراب الغزاة ، فأمنت البلاد على عهده ، وسارت شوطا بعيدا في طريق الاستقرار والاطمئنان ، وبلغ ذلك اسماع السلطان محمود فارتاح له واطمأن اليه وعظم شأنه عنده[1] ٠

٨٠ ولايته شحنكية بغـــداد ٥١٩ هـ = ١١٢٥م

وبعد ان تولى عماد الدين البصرة سنة ٥١٨ هـ ، تذكر الاصول خبر ولايته شحنكية بغداد عام ٥١٩ هـ = ١١٢٥م ٠ وكان ذلك على اثـر نفرة حصلت بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتهدده الخليفة فما كان منه الّا ان سار الى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة شاكيا من المسترشد بالله ، محذّرا السلطان منه ، واخبره بانه قد جمع عساكره يريد منعه عن العراق ٠ فجهّز السلطان جيشا لمقاتلة جيش الخليفة وسار نحو بغداد ، فارسل اليه الخليفة ان لا يقترب من بغداد في هذه الآونة لخراب البلاد وللغلاء المستحوذ عليها باذلا له على الرجوع عن رأيه مالا كثيرا ٠ ولكن السلطان لم يأبه بكل ذلك، بل سار في طريقه الى بغداد حتى اذا بلغ الخبر مسامع الخليفة نزح هو واهله وحرمه وارباب المناصب الى الجانب الغربي من بغداد في ذي القعدة سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥م وكان لنزوحه وقع سيئ لدى اهل بغداد ، فارسل اليه السلطان يستعطفه ويطلب اليه ان يعود الى داره ، فأرسل اليه الخليفة كتابا شديد اللهجة مما ادى الى غضب السلطان ومسيره الى العراق بجيوشه ٠ فارسل الخليفة عفيفا الخادم في عسكر له الى واسط وكان فيها عماد الدين زنكي يحميها من الغارات ، حتى اذا وصل عفيف حدود واسط ارسل اليه عماد الدين يحذّره القتال ويأمره ان يعود ادراجه ، فلم يلتفت

---

١٠ ملوك الموصل ٥٢ ـ ٥٣

اليه بل واصل سيره حتى نزل بالجانب الغربي منها ، فعبر اليه زنكي وقاتله قتالا شديدا فهزمه واضطر جنده للهرب بعد ان قتل منهم الكثير وأسر اكثر .

وفي هذه الاثناء وصل السلطان الى بغداد في ٢٠ ذي الحجة ونزل بمكان يعرف (بالشماسية) ودخل بعض عسكره بغداد وكان الخليفة قد جمع اليه السفن جميعها وسدّ ابواب دار الخلافة الا واحدا منها امر حاجبه ابن الصاحب بالمقام فيه وحفظه . ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعودة ويطلب الصلح وهو يمتنع الى ان دخل بعض عسكر السلطان دار الخلافة في محرم سنة ٥٢٠ هـ ونهبوا التاج ، فضج اهل بغداد ونادى السلطان بالناس ، فجرت بين الفريقين مناوشات عظيمة كان بأثرها ان عبر الخليفة الى الجانب الشرقي من بغداد ومعه (٣٠ الف) مقاتل ، فحفروا الخنادق في الليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان . فلم ير السلطان بدا من الاستنجاد بعماد الدين زنكي ، فأمره ان يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في البر والماء وان يكثر من السفن مهما امكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطايح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، واصعد في البر والسفن تسايره في الماء ، فلما قرب بغداد نشر الاعلام واظهر السلاح واخرج بعض من في السفن الى البر فأمتلأت الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى الناس منظرا عجيبا ، وعظم ذلك في اعينهم ، وركب السلطان والعساكر ، فرووا ما ملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين زنكي عند السلطان منزلة واستدل على كفايته وحسن سياسته[١] . حينئذ راسل الخليفة السلطان طالبا الصلح ، وترددت الرسل بينهما ، فاصطلحا وعاد ما كانا عليه واعتذر السلطان مما جرى .

واقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، ولما اراد الرحيل نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنكية بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ولضبط الامور فلم ير في امرائه واصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنكية العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع[٢].

---

١ . ملوك الموصل ٥٣ ٢ . ملوك الموصل ٥٨

٠٦ ولايته الموصل وسائر بلاد الجزيرة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م

ومما يجب ذكره بعد تولية عماد الدين شحنكية العراق ارتقاؤه الى ولاية الموصل في ١٠ رمضان ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ، ولا اعتقد ان تاريخ ولايته على الموصل يستوجب الشك وذلك ان جميع المصادر التي بين ايدينا من اولية وثانوية تتفق كل الاتفاق على هذه السنة وهي سنة ٥٢١ هـ[١] . وكانت الموصل اذ ذاك في يد اق سنقر البرسقي ويجدر بنا في هذه المناسبة ان نأتي على ذكر كيفية تولية عماد الدين الموصل على اثر وفاة صاحبها البرسقي . وقد اجمع الرواة على ان أق سنقر البرسقي قتل يوم الجمعة من سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م في الجامع الضيق في مدينة الموصل ، وكان الذى تآمر على قتله جماعة من الباطنية على ما يقول صاحب ملوك الموصل (٥٨ ص) ويوافقه في ذلك (ابن الوردى ٢: ٣٣ ، ستيفنسن ١٢٢ ، وابن القلانسي ٢١٦) . وبعد مقتل البرسقي قام بالموصل ابنه عز الدين مسعود وارسل الى السلطان ان يقرّه على البلاد ، فأجابه الى ذلك و اقرّه على ما كان لابيه من الاعمال فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضي[٢] . ولم يطل امره في ولايته الجديدة وذلك انه عاجلته منيته فقضى نحبه وهو لا يزال في عنفوان شبابه بعد مضي سنة من ولايته . ويؤرخ صاحب ملوك الموصل وفاته سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م[٣] فخلفه في ولاية الموصل اخوه الاصغر ، وكان يساعده في تدبير اموره وتسيير دفة الحكم احد مماليك ابيه وهو الامير جاولى[٤] ، وفعل الوالي الجديد ما كان قد فعله اخوه الاكبر من ارساله الى السلطان يطلب اليه اقراره على البلاد باذلا على ذلك اموالا كثيرة[٥] ، وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين ابا الحسن علي بن الشهرزورى ، وصلاح الدين محمد الباغسياني[٦] ، فحضرا اصبهان ليخاطبا السلطان في ذلك وكانا يخافان الامير جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف

---

٠١ ابن الاثير ١٠: ٥ ٢٤ ، المقريزى ١: ١: ٥ ٣ ، ابن خلكان ١: ٢٧١ ، الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢: ٢٣٩ ، الحريرى : ٤٦ ، منقريوس ١٨٠ ، ابن الوردى ٢: ٣٣ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، باركر ٣٣ — ٣٤ ، ستيفنسن ١٢٢ ، ملوك الموصل ٥٩ .
٠٢ ملوك الموصل ٥٩   ٠٣ ملوك الموصل ٥٩   ٠٤ الحريرى ٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن الوردى ٣٣   ٠٥ ملوك الموصل ٥٩ ، ابن الوردى ٢: ٣٣
٠٦ ملوك الموصل ٥٩ — ٦٥ ، الروضتين ٣٠ .

بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر وهما من اعظم اصحاب عماد الدين منزلة ، وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة فذكر له صلاح الدين ما قدم له فخوّفه نصير الدين من جاولي وتحكمه على صاحبه وقال له أن رأيت ان تطلب البلاد لعماد الدين فهو الرأى فأجابه الى ذلك واخذه الى القاضي الشهرزوري وتحدثا معه ووعده نصير الدين ومنّاه وضمن له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع ما جاوز امله ، فأجاب بهاء الدين ايضا ، وركب هو وصلاح الدين الى دار الوزير وهو يومئذ انو شروان بن خالد فقال له "قد علمت انت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها وقد انهينا الحال اليك لئلا يجرى خلل او وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله واللوم من السلطان ، فانهى الوزير ذلك الى السلطان فقال — من تريان يصلح لهذه البلاد فقد نصحتما لله وللمسلمين ؟ فذكرا جماعة بينهم عماد الدين زنكي ، وعظّما محله اكثر من غيره ، فمال السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه ، فاستقر الحال وولّاه البلاد جميعها وكتب منشوره الى بغداد [١]. وسار الزنكي الى البوازيج يملكها [٢] ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان صده جاولي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فحين ان وصل خرج جاولي الى لقائه ، وقبل الارض ثم قبل يده وعاد في خدمته فاقطعه الشهيد الرحبة واعمالها وسيره اليها [٣] ، واقام هو بالموصل يصلح امورها ويقرر قواعدها [٤] ، فولى نصير الدين دزدارية القلعة في الموصل وفوض اليه امر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في قلاع البلاد لنصير الدين ايضا [٥] وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها [٦] . وجعل صلاح الدين محمد الياغيسانى اميرا حاجبا .

---

١ . ملوك الموصل ٥٩ — ٦٥   ٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦

٣ . ملوك الموصل ٦٥   ٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٦ ، ملوك الموصل ٦٥   ٥ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، ابن القلانسي ٢١٧

٦ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٥ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، الروضتين ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، ملوك الموصل ٦٥

وهكذا تمت لعماد الدين ولاية الموصل وعظم شأنه عند السلطان وطار صيته في الافاق . ويجدر بنا قبل ان نجوز ذلك الى غيره من الاخبار ان نأتي بنظرة وجيزة على حال البلاد حين تولاها عماد الدين زنكي واستبشار الجميع بهذا الوالي الجديد ، ومسير الموصل في عهده اشواطا بعيدة نحو الاستقرار، فنقول "كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت اجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامدت على بلاد الاسلام ايديهم ، وضعف اهلها من كف عاديتهم ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، واستطار في البلاد شرر شرهم ، وعم اهلها شديد جفوهم معظيم قدوهم ، فنجوم سعد المسلمين متكدرة ، وسماء عزهم منفطرة ، وشمس اقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وانصارهم على اهل الايمان منصورة[١]" وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين الى عريش مصر ، ولم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين . "فأستئصلوا مالها من أثاث وعين ، واما الرقة وحرّان فقد كان اهلها معهم في ذل وصغار .... وانقطعت الطرق الى دمشق الاعلى الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة ومخاطرون باموالهم وانفسهم ..... ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوة يأخذونها منهم ليكفّوا ايديهم عنهم .... وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتدارا . واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالهم ، واما باقي بلاد الشام فكان حالها اشد من هذه .... فحينئذ اراد الله ان يسلط على الفرنج من سوء افعالهم ميجازيهم ، ويرسل على شياطين الصلبان رجوما منهم تهلكهم وتفنيهم ، فتولى الشهيد عماد الدين زنكي امرهم ، اذ لا امضى منه عزما ، ولا انفذ منه سنانا ، فتولى رعاية الجمهور .... فغزا الفرنج في عقر دارهم ، فاصبحت اهلّة الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس انوارها .[٢]"

---

١ . ملوك الموصل ٥٩

٢ . ملوك الموصل ٥٩ ـ ٦٥

ولما فرغ زنكي من امر الموصل وتقرير قواعد الجنود ، سار نحو جزيرة ابن عمر فحصرها وبها بحصر مماليك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها ، وظنا منه انها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغّبه ، فلم يصغ الى ذلك ، حينئذ جدّ زنكي في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس فالقوا انفسهم في النهر ، بعضهم سباحة وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على اهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد الى ارض تعرف بالزلاقة ، يمنعوا عبور الجند ، فعبرت العساكر ، والتقى الجيشان ، فانهزم عسكر الجزيرة ، فلما رأى اهل البلد ذلك راسلوا زنكي وطلبوا منه الامان ، فأجابهم الى ذلك وتسلم البلد ، ودخله وعسكره .[١]

دانت الجزيرة ، جزيرة ابن عمر ، لامر عماد الدين زنكي مخضع له من فيها وسار صيته في آفاقها وكان امره لا يزال آخذا بالتفاقم وسلطانه بالاتساع ، وكان عماد الدين الى جانب قوته ونفوذه وسلطانه كثير الطموح واسع الافق لا يرضى بما استولى عليه من البلاد ، بل هو يسعى لتوسيع نفوذه الى اكثر من ذلك لذا نراه يشن غاراته ويقود جيوشه بهجمات متتابعة شرقا وغربا ، يخضع البلاد ويجعلها تحت امره . خرج من الجزيرة بعد ان اقرّ سلطانه فيها وسار متجها نحو نصيبين ، وكانت اذ ذاك لحسام الدين بن تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها ، وما ان بلغ خبر سيره اليها مسامع صاحبها حسام الدين ، حتى قام اليه ليردّه عنها ، فسار الى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يطلب منه النجدة في دفع زنكي عن نصيبين ، فوعده خيرا وعاد حسام الدين الى ماردين . ويذكر صاحب كتاب ملوك الموصل ص ٦٧ ، ان حسام الدين المذكور بعد مقابلته لابن عمه ارسل رقاعا على اجنحة الطير الى نصيبين يعلم من بها من الاجناد انه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ٣ ايام . ولكن لم يتم الامر لحسام الدين وذلك ان الطير الذي كان قد ارسله مع الرقاع قد سقط على احدى خيام معسكر زنكي وقد كانت من الشهيد هذا الثقافة الى الطير فأمر بصيده ، فصيد وأتى به اليه فوجد الرقعة فيه

---

١ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٦ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

ففتحها فاذا بها الرقعة المذكورة : فأمر حينذاك بكتابة رقعة غيرها مؤداها "من حسام الدين ، انني قصدت ابن عمي وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر وما يتأخر وصوله الينا اكثر من ٢٠ يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه الاونة" ، وشدّها على جناح الطائر وارسله . جاء الطائر بالنبأ الى جند حسام الدين فالتقطوه مستبشرين ، ولكنهم لم يلبثوا ان قرؤا الرقعة حتى ارتعدت فرائصهم خوفا وجزعا وتملكهم الشعور بالعجز عن حفظ البلد طيلة هذه المدة ، فاضطروا لمصانعة زنكي وارسلوا اليه يسترضونه ويعرضون عليه القلعة ، فجاءهم عماد الدين بجيوشه وتسلم القلعة فخضعت بذلك نصيبين لامره[١].

وبعد استيلائه على نصيبين سار عنها الى سنجار ، فامتنعت عليه وقاتله من بها ردحا من الزمن ولكنهم لم يصمدوا لقوى عماد الدين فسلّموها اليه واصبحوا في خدمته[٢].

ثم قصد زنكي بعد هذا الخابور فلم يستعص عليه وملكه جميعه[٢] واكمل عماد الدين طريقه الى حرّان[٣] وهي للمسلمين كان اهلها مع الفرنج في ضيق عظيم[٤] وذلك لخلو البلاد من حام يذبّ عنها او سلطان يمنعها[٥] ، فلمّا بلغ اهلها اخبار مسير عماد الدين استبشروا خيرا وراسلوه بالطاعة واستحثوه على الوصول اليهم ، فسار اليهم مجدّا[٦] وخرج اهلها للقائه فتسلمها وتم له الامر فيها[٧] ثم سار عماد الدين قاصدا مدينة الرحبة فافتتحها قسرا واقطعها للامير جاولي مملوك البرسقي الذى مرّ معنا ذكره[٨].

---

١ . ملوك الموصل ٦٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردى ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٧
٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردى ٢ : ٣٣
٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧
٥ . ملوك الموصل ٦٧
٦ . ابو الفداء ٢ : ٢٣٩
٧ . ملوك الموصل ٦٦ ، ابن الوردى ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ، باركر ٣٤
٨ . ملوك الموصل ٦٥ ، الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردى ٢ : ٣٣

وهكذا تم لعماد الدين فتح القسم الاكبر من الجزيرة العامرية بما فيها مدينة الزلاقة ، ونصيبين ، وسنجار ، والخابور ، وحرّان ، والرحبة . وكان عماد الدين تسوّله نفسه ان يتم فتوحاته في الشرق ولكن هناك حجرا منيعا يحول دون ذلك ، او ان شئت فقل يزيد في صعوبة الفتح وخطورته ذلك ان قوة الفرنج التي كانت متمركزة حول الرها وما يليها من البلاد كانت تهدد عماد الدين وجيوشه . فلم يجد عماد الدين لتتميم فتوحه بدا من مهادنة الفرنج وامن جانبهم ، وعلى ذلك ارسل جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد يطلب منه المهادنة ، فلبّى هذا الطلب واستقر الصلح بينهما [1] فوجد عماد الدين زنكي بعد هذا الصلح نفسه متفرغا للاستيلاء على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها . [2]

ولا بد لنا قبل ان نختم الكلام عن ولاية عماد الدين الموصل من ان نذكر حادثة لعلها ابلغ واقع ما يمكن ان يقترن باسمه في هذا الدور من حياته . ذلك انه في غضون سنة ٥٢١ هـ بعد ان استقر له الامر في الموصل وتقلد الاحكام فيها ، اوكل اليه السلطان محمود القيام بامر تهذيب وتربية ولديه ألب ارسلان وفرّوخ شاه المعروف بالخفاجي ، فاستحق بذلك لقب اتابك وهو لقب كان يمنحه السلاطين لمن يقوم بتربية اولادهم . وبعد هذا عرف عماد الدين زنكي ، "بالأتابك" [3]

١٠ . ملكه حلب ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م

قلنا ان عماد الدين كان قد حاول مهادنة جوسلين صاحب الرها ليأمن جانبه فيتفرغ للاستيلاء على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية ، وكان قد تمّ له ما اراد من الاستقرار في البلاد التي فتحها ومن الاطمئنان من جانب الفرنج

---

١ . ملوك الموصل ٦٩

٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٩ ، ملوك الموصل ٦٩ ، الروضتين ٣٠

٣ . ابن خلكان ١ : ٢٧٢ ، القرماني ٢٧٩ ، الحنبلي ٤ + ١٢٨ ، كرد علي ٢ : ١٦ الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤

، فأستمر في فتوحه نحو الغرب واعظم ما يقرن باسمه من هذه الفتوح استيلاؤه على مدينة حلب الشهباء المنيعة في اول محرم عام ٥٢٢ هـ كما تظهر ذلك المصادر التي وقفت عليها[١] . وينفرد ان القلانسي في رواية له في كتابه ص٢١٨ بان فتح عماد الدين لحلب كان في شهر شعبان من علم ٥٢١ هـ . ونحن لا يمكننا الا ان ننظر الى روايته هذه نظر الشك والريبة لانفراده بها ، بين ان جميع المصادر سواه مجمعة على سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م ، ونحن نعلم ان قواعد المصطلح لا تطمئن لرواية انفرد بها راو واحد مهما بلغ من عدله وضبطه . قلنا ان عماد الدين استولى على حلب . ولا بد لنا ان نذكر في هذه المناسبة كلمة عن حالة حلب قبل ان يفتحها صاحبنا وكيف تمّ له فتحها .

كانت مدينة حلب منذ سنة ٥١٨ هـ خاضعة لامر البرسقي وامرابنه مسعود من بعده . على انه عندما قتل البرسقي في الموصل اضطربت الاحوال وحاول الافرنج اخذ حلب ونهبها[٢] مما اضطر مسعود لمغادرة المدينة واستنابته عنه اميرا اسمه (قومان) ثم اولى عليها اميرا آخر اسمه "قتلغ ابه" وسيّره بتوقيع الى قومان بتسليمها . فقال قومان لقتلغ "ان بيني وبين عز الدين علامة لم ارها ولا اسلّم الّا بها ."[٣] وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، فعاد قتلغ ابه الى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد توفي فاضطر الى العودة الى حلب مسرعا ، وعرف الناس بموت الامير مسعود ، فسلم الرئيس "فضائل بن بديع" البلد واطاعه المقدمون به واستنزلوا قومان من القلعة ، واعطوه الف دينار ، وتسلم قتلغ القلعة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الاخرة سنة ٥٢١ هـ .

ولكن يظهر ان قتلغ المذكور اخذ يسيء السيرة في البلاد فأحاط اهلها بالعسف والظلم[٤] ، ولم يكتف بذلك ، بل اخذ يمد يده الى اموال الناس

---

١. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملك الموصل ٦٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الغزي ٣ : ٨٧ ، ابن الشحنة ١١٠ ، القرماني ٢٧٩ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

٢. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الغزي ٣ : ٨٧ ، ابو الفداء ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥

٣. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧   ٤. ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، كرد علي ٢ : ٥

لا سيما الزكاة فنفرت منه قلوب الناس، وانصرفت عنه الى زعيم آخر في حلب سبق ان تولى عليها وهو "بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق" فالتف الناس حوله واطاعوه، وأمّروه على انفسهم[١]. ثم انهم جمعوا فلولهم وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوال وقبضوا على كل من كان بالبلد من اصحاب قتلغ وزحفوا الى القلعة[٢] يريدون قتلغ. ولكن هذا كان قد تحصن في قلعته وامتنع بها[٣] فسار اليه اصحاب سليمان بن عبد الجبار وحاصروه في القلعة. وفي هذه الاثناء وصل حلب "حسّان صاحب منبج" و "حسن صاحب بزاعة" لاصلاح الامر فيها. ولكن مما زاد في الامر خطورة ان اخبار الاضطرابات القائمة في حلب قد بلغت اسماع الفرنج وعلى رأسهم جولسين صاحب الرها، وكان الفرنج قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية فتابعوا الغارات على اهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع، فقد قوى طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد، وكانت اضطرابات حلب مناسبة جديدة لتدخلهم، لذا اراد جولسين هذا ان يغتنم الفرصة، فرصة هذا الاضطراب وضمّ حلب الى ملكه، فتقدم اليها بجيش جرار "فصونع بمال فرجع عنها[٤] واضطرب حبل الامن في حلب، واشرف الناس على خطر عظيم الى منتصف ذي الحجة من السنة نفسها[٥] وكان عماد الدين صاحب الموصل والجزيرة قد سيّر الى حلب الامير سنقردراز والامير حسن قراقوش[٦] وهما من اكابر امراء البرسقي، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل والجزيرة والشام، فاستقر الامر ان يسير بدر الدولة بن عبد الجبار و (قتلغ ابه) الى الموصل، الى عماد الدين زنكي، فسارا اليه و "قام حسن قرقوش بحلب واليا عليها ولاية مستعارة[٧]". فلما وصل بدر الدولة وقتلغ الى عماد الدين اصلح بينهما ولم يردّ واحداً منهما الى حلب. وسيّر حاجبه صلاح الدين محمد الياغيساني اليها في عسكر فصعد الى القلعة وملكها ورتب الامور فيها[٨] ثم سار عماد الدين بنفسه

---

١. ابو الفداء ٢: ٢٣٩، الكامل لابن الاثير ١٠: ٢٤٧، ابن الوردي ٢: ٣٤، كرد علي ٢: ٥

٢. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧ ٣. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧، ابو الفداء ٢: ٢٣٩، ابن الوردي ٢: ٣٤ ٤. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧، ابن الخزى ٣: ٨٨، ابو الفداء ٢: ٢٣٩ الحريري ٤٧، ابن الوردي ٢: ٣٤، كرد علي ٢: ٥

٥. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧ ٦. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧، ابو الفداء ٢: ٢٣٩، ابن الورد ٢: ٣٤

٧. ابن الاثير ١٠: ٢٤٧

٨. ابن الاثير ١٠: ٢٤٨، ابو الفداء ٢: ٣٩، ابن الوردي ٢: ٣٤، كرد علي ٢: ٥

الى بلاد الشام ، فلما سمع اهل حلب به وبقربه منهم راسلوه يستغيثونه ، ويستنصرونه واذعنوا له بالطاعة ، فعبر الفرات وسار اليهم وملك مدينة منبج من حسان [1] ، وحصن بزاعة الذى كان في يد بني دمرداش [2] ويظهر ان عماد الدين قد غدر باهل الحصن المذكور وقتل منه ما شاء واسر وسبى فتنصر القاضي و ٤٠٠ شخص من اهلها [3].

وسار زنكي بعد هذا الى حلب فاستبشر به اهلها وتسلم البلد [4] ويجدر بي ان اورد بالنص ما ذكره صاحب كتاب الدولة الاتابكية ملوك الموصل من مجيء عماد الدين حلب واستبشار اهلها به . يقول ابن الاثير في كتابه الدولة الاتابكية ما نصه " وسار الى حلب فالتقاه اهلها ، واظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله ، وكان ملكه لها سنة اثنتين وعشرين وخمسماية ، ولو لا ان الله من عليها بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا عليها وعلى بلاد الشام ، فانهم كان لهم من اتابك طغدكين شاغل ومانع عن بعض اغراضهم ، وكانوا متى حصروا حلب وغيرها جمع طغدكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى ان توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسماية فخلت البلاد بالمرة وملكها الشهيد ، فاقام بها ليقرر قواعدها ، ويصلح امورها ، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليه ، ففرغ من جميع ما اراد ." [5] واستقرت الامور في حلب لعماد الدين فرتب امورها واعاد الامن فيها الى نصابه واقطع اعماله الاجناد والامراء . [6] ثم انه جعل على حلب واليا تذكره المصادر باسم ابي الحسن علي بن عبد الرزاق . [7]

---

١ . القرماني ٢٧٩ ، ملوك الموصل ٦٩ ، منتريوس ١٩٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩

٢ . ملوك الموصل ٦٩ ، ابن الشحنة ١٧٥ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩   ٣ . ابن القلانسي ٢٦٥ ، منتريوس ١٨٤

٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣

٥ . ملوك الموصل ٧٠

٦ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، القرماني ٢٧٩ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢٣٩ ابن الوردى ٢ : ٣٤ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥

٧ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، الحريرى ٤٧

١١٠ فتحه لمدينة حماة وحمص ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م

بعد ان ملك عماد الدين زنكي ، اتابك الموصل ، مدينة حلب ، وخضع له سوادها، سار عنها جنوبا الى مدينة حماة محاولا فتحها ، وكان ذلك في ٥٢٣ هـ يقول ابن الاثير في كامله الشهير ما نصه " في سنة ٥٢٣ هـ ملك عماد الدين زنكي صاحب الموصل مدينة حماة "[١] ، ولعلنا لا نتعدى الحق اذا ادّعينا ان جميع المصادر الموثوقة التي وقفنا عليها تتفق وابن الاثير في هذا التاريخ[٢] .

ولنذكر الان ما هي الاسباب التي دعت اتابك لفتح هذه المدينة المتواضعة وكيفية فتحها . ان جميع المصادر متفقة على ان عماد الدين عبر الفرات الى الشام زاعما انه يريد جهاد الافرنج وارسل الى تاج الملوك بورى بن طغتكين صاحب دمشق يستنجده في ذلك ويطلب منه المعونة على جهادهم فأجابه هذا طلبه وارسل من أخذ له العهود والمواثيق . فأطمأن قلب بورى الى ذلك وايقن ان عماد الدين سوف يتضافر واياه على جهاد الفرنج ولم يكن يفكر بان اتابك زنكي سوف ينقض عهده ، وانه قد اتخذ هذه الدعوة وسيلة للوصول الى مآربه . فأرسل بورى الى ابنه سونج حاكم مدينة حماه حينذاك يأمره بالمسير الى زنكي وضمّ جيوشه الى جيوش المسلمين لمحاربة الفرنج . فنزل سونج عند ارادة والده وتجهز بجيش جرّار لمقابلة عماد الدين والسير معه جنبا الى جنب لمقاتلة الفرنج وسار شمالا مغادرا مدينة الآمنة حتى وصل الى مقر زنكي بين حلب وحماه . فلم يلبث زنكي ان بلغه خبر وصوله فقام لاستقباله واحاطه بشتى انواع الحفاوة والكرم واستمّر على ذلك مدة ايام حتى اذا وجد عماد الدين الفرصة سانحة غدر بضيوفه وقبض على سونج ولد تاج الملوك وعلى جماعة من امراء جيشه المقدمين ، ونهب خيامهم واعتقلهم وسيّرهم الى حلب ، وسار هو من يومه الى مدينة حماه فوصلها وهي خالية من الجند الحماة واهلها آمنون مطمئنون في عقر دورهم ، فملكها واستولى عليها دون ان يجد فيها ادنى مقاومة . وهكذا تم له الامر فيها[٣] .

---

١ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥١

٢ . ملوك الموصل ٧٠ ، ابو الفداء ٣ : ٣ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥

٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥١ ، منتريوس ١٨٠–١٨١ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، كرد علي ٢ : ٥ ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٦ ، ابو الفداء ٣ : ٣

وبعد ان خضعت حماه لعماد الدين رحل عنها جنوبا الى حمص يريد فتحها ، فحاصرها مدة وقبض على صاحبها "قرجان بن قراجة" وطلب منه ان يأمر نوابه وولده الذين فيها بتسليمها ، فأرسل اليهم بالتسليم لكنهم ابوا الا ان يدافعوا عنها ويردوا خصومهم على اعقابهم . فشدد عماد الدين عليهم الحصار وقاتلهم مدة طويلة ولكن شجاعة فرسانها المحاصرين حالت دون فتحها ، حتى اذا وجد عماد الدين نفسه عاجزا عن فتحها اضطر الى ان يرحل عنها ويعود الى الموصل حاملا شرف انتصاره على مدينتي حلب وحماه وخذلان عجزه عن حمص . ولعلنا نجد ما يبرر رفع عماد الدين الحصار عن حمص في حلول فصل الشتاء عليه وهو محاصر كما يذكر ذلك (ستيفنسن ١٢٦) والشتاء في حمص والبلاد الداخلية شديد الوطأة على من اعتاد العيش في العراق ، اضف الى ذلك ان ابن الاثير وابا الفداء يحدثاننا بأن جيوشا فرنجية اغارت على حلب مما اضطر عماد الدين حين بلغ الخبر الى رفع الحصار عن حمص والعودة الى حلب[1] . ومهما يكن من الامر فالمصادر مجمعة على ان عماد الدين عاد عن حمص خائبا دون أن يظفر فيها بأى فتح او انتصار يذكر . وعند ما عاد الى حلب اطلق سراح سونج بن طغتكين تاج الملوك صاحب حماه ، الذى ذكرنا امر اسره وباقي امرائه وذلك لقاء دية تبلغ الخمين الف دينار[2] .

١٢ . الحرب بين عماد الدين والملوك الارتقية . فتحه لحصن الاثارب ، ودارا واخذ عماد الدين جانب السلطان مسعود في حربه مع اخيه الطامع في السلطنة . ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م

في سنة اربع وعشرين وخمسماية اجتمع "ركن الدولة داود بن سقمان" صاحب حصن كيفا وغيرها و"حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى صاحب ماردين" وهو ابن عم داود وانضم اليهما صاحب "آمد" وجمعوا من الامراء ما انتهت قدرتهم الى جمعه من التركمان ، وكان داود مطاعا عندهم ، فاجتمعوا في نحو عشرين الف مقاتل[3] فسار اليهم عماد الدين زنكي ولقيهم بالقرب من (دارا) وهي لهم فاقتتلوا

١. ابن الاثير ١١ : ص٠٠٠ ، ابو الفداء ٣: ١٢
٢. ابن الاثير ١٠ : ٢٥١
٣. ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

قتالا شديدا ، صمد لهم عسكر زنكي ، وهو نحو اربعة آلاف فارس بشجاعتهم ، وعبر عسكر الارتقية لكثرتهم[1] ثم انجلت الموقعة عن هزيمة الارتقية ، عندها حاصر عماد الدين "سرجة"[2] فملكها وانتقل الى (دارا) فملكها ايضا.[3]

ولما فرغ عماد الدين من امر الارتقية وأمن شرهم ، سار الى بلاد الشام واعدّ العدة ووطّن نفسه على الجهاد وقصد حصن الاثارب ، وهو حصن حصين بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ "ابن الاثير ١٠: ٢٥٢" ، ويقول كاتب مقال الموسوعة الاسلامية ان حصن الاثارب يقع بين حلب وانطاكية وهو للصليبيين (الموسوعة ٤: ١٢٢٥) وليس في الروايتين شيء من التضارب . ولعل السبب الذى حدا بزنكي الى محاصرة هذا الحصن الصليبي الكبير ما كان يسببه هذا الحصن من الضرر الكبير على اهل حلب[4] ، وذلك انه كان ملجأ للجنود الفرنج ، منه يغيرون على حلب وسواها ويأتون على ما حولها من البلاد بالسلب والسبى حتى ضجر اهل حلب وما يجاورها من ذلك ، فكان ذلك دافعا لعماد الدين زنكي بالمسير على الحصن ومنازلته وقتال من فيه . يقول صاحب كتاب ملوك الموصل "وكان هذا الحصن اضر شيء على اهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وضرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج ذوى البأس كل معروف بشدة المراس ، اذ هو من اخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد قتالهم ، وادمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم واحسنوا الذبّ عنهم وعنه ، ولما علم ملك الفرنج الحال جمع الفرسان واستشارهم في الذى يصنعون ، وباى حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون ، وبعد جدال طويل ، اهتموا بجمع الفرسان والاجناد ، واحضروا من في اطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، واقبلوا في جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، واعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا اليه ، والخوف قد عم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خايفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخرون اخرى ، فلما تدانى الزحفان

---

١. ملوك الموصل ٧٠   ٢. ابن الاثير ١٠ : ١٥٣

٣. ملوك الموصل ٧١ ، ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

٤. ابن الاثير ١٠ : ٢٥٢ ، ابو الفداء ٣: ٨٩ زلبت للوردى ٢: ٣٥ ، كرد علي ٢: ٦ ملوك الموصل ٧١ .

استشار الشهيد وزراءه وامراءه فأشار اكثرهم بالعود الى حلب ومطاولة الفرنج ان يتفرقوا ، فقال هذه خطة خسف تجرئهم علينا ، وتطمعهم في ما لدينا ، لكن الرأى ان نستعين بالله عليهم ونقاتلهم فاما لنا واما علينا ، فلقيهم وشبت الحرب بين الفريقين ، واشتد الحصن بالضرب ، فكثر فيهم الاسر والقتل ، فصال ملوكهم وقماصتهم وفرسانهم وقاتلوا قتال من ايس من النجاة بالانهزام ، فاسر الشهيد فيهم الاثخان ، ومنع من الاسر واعطاء الامان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء ، فلما استمر له النصر وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعمّ كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزل بتلك الارض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن اخربه ومحا اثره وازال من تلك الارض ضرره"[١]

وهكذا قضى البطل عماد الدين زنكي على اهم ثغر من ثغور الصليبيين التي كانت لا تزال تهدد حياة المسلمين اذ ذاك وكيانهم في الشرق ، واخرب الحصن المذكور و "دكه دكا" على حدّ قول (ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣ ، ابو الفداء ٣ : ٤

وبعد ان تم له امر تخريب الحصن سار الى حارم وهي قضاء من اقضية حلب الى الشمال منها ، وحاصر حصن حارم واستمرّ في التضييق عليه حتى اضطر اهله لان يسألوه الصلح ويبذلوا له المناصفة على ولاية حارم فأجابهم الى ذلك "لان عسكره قد كثر فيهم القتلى والجراحات"[٢]

ولقد اتفق انه في غضون سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م قضى السلطان (محمود بهذان) نحبه ، فأضطرب حبل الامن في بلاده على اثر ذلك وقامت المنازعات تذرّ قرنها بين افراد اسرته كل يريد السلطنة لنفسه ويرى له الحق فيها . وذلك انه لما مات السلطان محمود بهذان الآنف الذكر كان قد اتفق وزيره ابو القاسم النسابادي والاتابك سنقر الاحمديلي على تولية ولده (داود بن محمود) بعد ابيه . وخطبوا له في جميع البلاد على ذلك . على أنه لم يلبث السلطان مسعود اخو السلطان محمود المتوفي ان سمع بوفاة اخيه حتى قام يطالب بالسلطنة لنفسه

---

١ . ملوك الموصل ٧١ ــ ٧٦

٢ . ملوك الموصل ٧٦

واستولى على بعض ممالك اخيه ثم اراد المسير الى بغداد ولكن سبقه اليها اخوه (سلجوق شاه) ونزل بدار السلطنة ، فلم يجد السلطان مسعود بدا من استمالة عماد الدين زنكي فارسل اليه يستنجده ، فأجابه زنكي الى ما طلب منه ووعده النصر فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة[١] وسار عن الموصل يريد بغداد ومرّ بتكريت ليجتمع بالسلطان مسعود الذى قد نزل "بعباسية الخالص" قرب بغداد . فلما سمع سلجوق شاه بوصول عماد الدين تكريت ارسل عسكره بقيادة "قراجة" فوصل هذا تكريت وحدثت بينه وبين عماد الدين موقعة انتهت باندحار زنكي وجيوشه واسر عدد كبير من اتباعه مما اضطره للرجوع الى الموصل حيث حاول جمع فلول جيشه ليعيد الكرة الى بغداد . ولكن في هذه الاثناء حدث ان جرت مناوشات بين مسعود واخيه سلجوق شاه انتهت بتراجع السلطان مسعود بسبب ما كان لاندحار زنكي من الوقع السيئ في نفس مسعود واتباعه وضعف معنوايات جيشه . على انه لم يلبث مسعود ان يعود ادراجه منهزما حتى ظهرت في ميدان القتال جيوش السلطان "سنجر" الجرارة قادمة من خراسان ومعه الملك "طغرل بن السلطان محمـــد" ليرتبه في السلطنة ، فلم يجد الخليفة المسترشد بالله بدا من ان يطلب الى السلطان مسعود واخيه سلجوق شاه ان يضعا اوزار الحرب بينهما ويتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر[٢] ولكن يظهر ان السلطان سنجر كان قد اوعز من طرفه الى عماد الدين زنكي والى دبيس بن صدقة بالمسير الى العراق والاستيلاء عليه[٣] ، لذلك ما لبث زنكي ان وصل الموصل وجمع فلول جيشه حتى عاد الى بغداد يمسح عنه أثر الهزيمة المنكرة التي حلت به وبجيشه منذ حين . واتفق انه في هذا الوقت نفسه كان قد وصل بغداد ايضا من الحلة دبيس بن صدقة المذكور والتقيا جميعا في بغداد . فلما بلغ ذلك مسامع الخليفة المسترشد بالله وكان حينذاك (بخانقين) عاد منها مسرعا مع السلطان مسعود ليرد زنكي ودبيس عن بغداد ، فجرت بين الفريقين معارك حاسمة انتهت بهزيمة دبيس اولا واندحار زنكي وعودته الى الموصل .[٤]

---

١. ابن الاثير ١٠ : ٢٥٧   ٢. ملوك الموصل (٧٦ ـ ٧٩

٣. ابن الاثير ١٠: ٢٥٩   ٤. ملوك الموصل ٨٣

وقد يجدر بنا ونحن ندرس زنكي ان نأتي على ذكر خبره مع (دبيس بن صدقة) لما كان بين هذا وذاك من عظيم الصلة . فلقد كان دبيس هذا ينحدر من سلالة عربية، وكانت اليه ولاية الحلة[1] . وكان على ما تقوله بعض المصادر رجلا شريرا حاول اكثر من مرة الايقاع بعماد الدين زنكي والغدر به . يقول ابن الاثير في ملوك الموصل ما نصه "وكان دبيس شريرا ومن أشدّ الناس عداوة للشهيد عماد الدين واكثرهم وقيعة فيه"[2] ولقد حدث أن امير (صرخد) وهو حصن حصون الشام قد توفي وخلّف زوجة، فأشار اليها بعض اصحابها ان تتصل باحد الامراء الاكابر صلة تزاوج لعلّ هذا الامير يساعدها على بسط نفوذها على هذا الحصن . فلم تجد اميرا هو اجدر بهذا المقام من دبيس بن صدقة، فارسلت اليه تستقدمه، فسار هذا الى الشام ولكنه ضلّ طريقه، فخرج اليه قوم من بني كلب[3] واسروه وسلموه الى تاج الملوك بن طغتكين صاحب دمشق . فلما ان بلغ ذلك مسامع عماد الدين حتى ارسل الى صاحب الشام يطلب اليه تسليم صاحبه دبيس، وبذل له في ذلك الاموال . فأبى تاج الملوك ان ينزل عند ارادة زنكي فاصرّ عليه زنكي بتسليم دبيس والا قصد بلاده واتى عليها بالسلب والنهب . فوجد تاج الملوك نفسه مضطرا الى تلبية طلب عماد الدين على ذلك يسترسل ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل ص ٨٤، زاعما أن تسليم تاج الملوك لدبيس كان على اثر تهديد زنكي له . على ان بقية المصادر كأبي الفداء وابن خلدون وابن الوردي وغيرهم تدّعي ان تاج الملوك لم يرض بتسليم دبيس الّا على اساس ان يسلّم زنكي سونج لابيه تاج الملوك مقابل تسليمه دبيسا . فسلّم زنكي سونج الى ابيه وتسلّم هو بدوره مقابل ذلك دبيس بن صدقة[4] . فلما صار عنده جازى اساءته باحسان وانعم عليه واعطاه المال والخيام والخيل وكلما يحتاج اليه الملوك وبالغ في اكرامه .[5] على انه يظهر ان خبر اسر دبيس بلغ مسامع المسترشد بالله، فامتعض لذلك وارسل مع سديد الدولة بن الانباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد الى تاج الملوك يطلب

---

١ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥٤ ٢ . ملوك الموصل ٨٣

٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥٥ ٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥٥

٥ . ملوك الموصل ٨٤، ابن خلدون ٤ : ٢٨٩، ابن الوردي ٢ : ٣٧

منه تسليم دبيس ولم يكن للخليفة اذ ذاك علم بان عماد الدين كان قد سبقه في ذلك . فلما وصل الرسول دمشق وعلم بمصير دبيس اشتد القول في عماد الدين وذكره بما يكرهه فاتصل ذلك بعماد الدين فامتعض وامر جنده بحمل الانبارى ، فحمل اليه فحبسه بالموصل ولكن الخليفة توسط لدى زنكي باطلاق سراحه فاطلقه واحسن اليه كما ذكر ذلك صاحب ملوك الموصل (٨٤) .

١٣٠ الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وعماد الدين زنكـــــي

ثم انه في ربيع الاول من عام ٥٢٧ هـ = ١١٣٢م سار الخليفة المسترشد بالله من بغداد الى الرملة حيث نظم جيشا كبيرا وكان قد قصده عدة امراء من العساكر السلطانية ، فقوى المسترشد بذلك واستبد بالعراق ردحا من الزمن وجبى الاموال وارسل الامام ابا الفتوح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين في قصد لم تأت الرواة على ذكره ، وانما هي تذكر ان الواعظ المذكور عندما قابل عماد الدين اهانه واغلظ له في القول فلم يكن من عماد الدين الا ان قابله بالمثل وبالغ في اهانته . فثارت بذلك حفيظة الامام ابي الفتوح وعاد الى بغداد ونفسه تجيش غضبا وقصّ ما جرى له الى الخليفة فغضب الخليفة لذلك وسار الى الموصل في (٣٠ الفا) يريد مقاتلة عماد الدين زنكي . فما ان بلغ هذا خبر سير الخليفة اليه ، حتى تأهب للرحيل عن الموصل في جمع من عساكره بعد ان أناب عنه فيها نصير الدين جقر[1] ، وتابع سيره حتى وصل منطقة سنجار وكان في هذه الاثناء قدوم المسترشد بالله على الموصل بجيشه الجرار ، فحاصر المدينة ولكن لم يستطع ان يظفر بها وذلك لان نصير الدين جقر كان قد حصّن المدينة واحسن حفظها وقام فيها المقام المرضي . اضف الى ذلك ان عماد الدين زنكي كان من ناحيته يرسل السرايا تقاتل جيش الخليفة وتقطع الميرة عنهم من كل صوب ، فعزّت الاقوات عندهم وقتل الكثير منهم ولكنهم ثابروا على حصارهم عسى ان تكون الغلبة في النهاية في جانبهم واستمروا في الحصار مدة لا تقل عن الثلاثة

---

١ . ملوك الموصل د ٨

اشهر ،كانت النتيجة فيها ان خابت مساعيهم ولم يظفروا بالمدينة فغادروها عائدين الى بغداد . ويذكر صاحب ملوك الموصل خبر بعض مراسلات صلحية ناجحة جرت بين الخليفة وبين عماد الدين انتهت بعقد الصلح بينهما ،فيقول " وارسل اتابك الشهيد نصالحه وسيّر اليه الشهيد الخدم والهدايا ." [1]

٠١٤ ملكه لقلاع الاكراد الحميدية ٥٢٨ هـ = ١١٣٣م

انتهت سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢م بذلك الصلح الذى قام بين الشهيد وبين الخليفة المسترشد بالله ،وعاد كل من الفريقين الى بلده فاستقر الخليفة في بغداد ودخل عماد الدين الموصل يسوّى فيها ما افسده الحصار ويقرّ الامور فيها ،فلم تنته السنة هذه وتبتدأ طلائع السنة الجديدة حتى كانت قد استقرت الامور في الموصل على غايتها وعادت المياة الى مجاريها ،فلقي عماد الدين بذلك فيضا من قوته وفراغا من وقته ليقوم ببعض الفتوح . فالتفت حوله فلم يجد سوى القلاع الحميدية المنتشرة في جوانب منطقته ،فأراد الاغارة عليها ليأمن شرّها وشرّ اهلها . وكان ذلك عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٣م [2] باجماع الروايات سوى رواية واحدة انفرد بها صاحب الروضتين تجعل تاريخ الاستيلاء في عام ٥٢٩ هـ (الروضتين ٣١) ونحن لا يمكننا في هذه المناسبة الآ ان نسير على المنهاج الذى اتبعناه آنفا في مثل هذه القضايا متبعين في ذلك قواعد مصطلح التاريخ فنرد رواية الروضتين لاجماع بقية الروايات الاولية والثانوية على نقضها ،وخصوصا ابن الاثير في كتابيه (ملوك الموصل ،والكامل) سار عماد الدين زنكي في غضون سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣م الى القلاع الحميدية وحاصرها مدة طويلة وقاتل اهلها قتالا شديدا حتى اخضعها فملك (قلعة العقر) [3] ثم سار منها الى (قلعة الشوش) [4] فملكها ايضا [5] . وكما انفرد صاحب الروضتين في روايته عن تاريخ استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية كذلك ينفرد في ذكر استيلاء عماد الدين على (قلعة الشعباني) التي هي من اعظم قلاعهم [6] . ويضيف ابن الوردى الى ذلك قلاع الهكارية وكواشي . [7]

---

٠١ ملوك الموصل ٨٦ ٠٢ ابن الاثير ١١ : ٥ ، ملوك الموصل
٠٣ ابن الاثير ١١ : ٥ ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٥ ٠٥ ابن الاثير ١١ : ٥ ، ملوك الموصل ٨٦ ، ابوالفداء ٣ : ٨ ٠٦ الروضتين ٣٦ ٠٧ ابن الوردى ٢ : ٣٩

وقد اتفقت الرواة على ان سبب استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو غضبه من بعض الامراء القائمين عليها، والذين ساعدوا الخليفة المسترشد بالله في حصار الموصل وقتال عماد الدين زنكي، فأغار عماد الدين عليهم وازال سلطتهم نهائيا. ويقول صاحب ملوك الموصل "وسبب قصدها انه لما ملك الموصل واعمالها اقرّ الامير عيسى الحميدى على ولايته ولم يتعرض في شيء مما بيده، فلما حصر المسترشد بالله الموصل حضر الامير عيسى عنده في جنده وجموعه وامده بالاقوات وغيرها مما يحتاج اليه، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل امر الشهيد بحصر قلاع الحميدية فحوصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان فتحت في هذه السنة واطمأن اهل سواد الموصل المجاورين." [1] ولا تختلف بقية الروايات عن مضمون هذه الرواية السالفة فالجميع يرون ان السبب الرئيسي لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو ان الامير عيسى الحميدى الذى كان قد اقرّه عماد الدين على هذه القلاع، واسبغ عليه ضروب الانعام، كفر بنعمة عماد الدين وقام يساعد الخليفة المسترشد بالله في حربه وحصاره الموصل ويرسل له الجموع والاقوات مما اغاظ عماد الدين واثار حفيظته عليه، فقام بما ذكرناه من حصار الحصون وقتال ولاتها واصحابها.

ونحن لا يمكننا الا ان نقرّ ما تذكره المصادر في هذا الصدد الا اننا نرى انه الى جانب هذا السبب الظاهرى لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية، كان هناك سبب باطني لعله اعمق وابلغ في نظرنا من حجة الرواة. وذلك ان عماد الدين ذلك البطل الناشيء كان يرى ان سيطرته ونفوذه لا يمكن ان يستقرا الا اذا استولى على ما حوله من مراكز القوة والهجوم وامن شرّ الغزوات وكان عماد الدين يجد من وقته متسعا ومن قوته فيضا لمثل هذا الاستيلاء، فاقدم عليه، واعتذر عن فعلته بان اصحاب هذه القلاع قاتلوه، وناصروا عدوه الخليفة عليه فاستحقوا العقاب الصارم، وما اكثر ما يفعل الاقوياء بالضعفاء، كما فعل عماد الدين زنكي باصحاب القلاع، وهم يحتجون بحجج واهية ما انزل الله بها من سلطان.

---

١. ملوك الموصل، ٨٦، ابن الاثير ١١: ٥

١٥٠ زنكي يحاصر آمد ويملك قلعة الصور

ولم يكتف عماد الدين بالقلاع التي استولى عليها حتى الان ، بل قد سار في غضون السنة المذكورة[١] الى (آمد) وكان مسيره الى هذه القلعة بصحبة تمرتاش صاحب ماردين[٢] ، فلما بلغ ذلك اسماع صاحب الحصن ارسل الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده[٣]، فجمع هذا عساكره وسار يريد الحصن فالتقى بجيش زنكي وتمرتاش واقتتل الفريقان ردحا من الزمن حتى انهزم داود سقمان وعاد مكسورا وقد قتل جمع كبير من عسكره[٤] ٠ فاقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر[٥]، ولكن يظهر ان مناعة الحصن حالت دون الاستيلاء عليه ، فاضطر عماد الدين على الرجوع صفر اليدين من غير ان يبلغ غرضه ، وفيما هو راجع اغار على قلعة الصور من ديار بكر[٦] وحصرها وضايقها حتى اذعنت لقوته فملكها في رجب من هذه السنة على ما يذكره صاحب الكامل (ابن الاثير ١١ : ٥ ، وما يذكره ابن القلانسي ٢٤٢) ٠ ويذكر ابن القلانسي ان الشهيد بعد ان ملك حصن الصور سلمه الى "حسام الدين تمرتاش" ٠[٧]

١٦٠ زنكي والخلاف بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م

تم لزنكي امر الاستيلاء على القلاع الحميدية ، والسيطرة على قسم كبير من سورية واصبح له الامر والنهي فيما آل اليه من البلاد ٠ ومضت الايام وخطر زنكي لا يزال آخذ بالتفاقم ونفوذه آخذا بالاتساع ، ولم يكن زنكي ليمر على هذه السنة دون ان يترك فيها اثرا بارزا تردده المصادر ، ذلك اشتراكه في الخلاف الذي قام في غضون هذه السنة بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد بالله ٠ وكان مسعود هذا سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣م ببغداد وقد ضعف امره وقوى امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل[٨]، فراسل السلطان مسعود المسترشد بالله

---

١٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ملوك الموصل ٨٦ ، ابن القلانسي ٢٤٣
٢٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٣٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ، الروضتين ٣١
٤٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٥٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣
٦٠ ابن الاثير ١١ : ٥ ٧٠ ابن القلانسي ٢٤٣
٨٠ ملوك الموصل ٨٧

يستميله ويطلب منه المساعدة على اخيه طغرل فاجيب الى ذلك[1] ، وامدّه الخليفة بالاموال والرجال ، وكان في الوقت نفسه السلطان سنجر يمد طغرل بالمساعدة .
لقد تأخر السلطان مسعود بالمسير فارسل المسترشد بالله يأمره بالاسراع في الرحيل ودفع اخيه عن البلاد ، ولكن السلطان مسعود لم يحرك ساكنا . فاغتاظ الخليفة وارسل اليه الخبر تلو الخبر يستثيره على المسير الى اخيه ، حتى اضطر اخيرا الى ان يجمع الجموع ويجند الجنود استعدادا للرحيل . فيما هو كذلك جاءه خبر وفاة اخيه طغرل في المحرم من سنة ٥٢٩ هـ[2] فرحل الى همذان مسرعا ، فاجتمعت العساكر لملاقاته فهزمهم ، فولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلوها واخبر الخليفة المسترشد بالله بسوء قصد السلطان مسعود وحثوه على حربه واعدين بالمساعدة .
اقتنع الخليفة اخيرا الى ان يجمع الجموع ليسير الى قتال مسعود اعتمادا على مساعدة الكثيرين من اصحاب الاطراف . سار الخليفة عن بغداد يريد لقاء السلطان مسعود وقد اناب عنه نيبها جمال الدولة[3] اقبال في ٣ آلاف فارس .

ولم يأل الخليفة جهدا في استمالة اصحاب الاطراف ، ولكن مسعود حاول استجلابهم اليه فنجح في ذلك ولحق به اكثرهم حتى بلغ جيشه خمسة عشر الفا بعد ان كان ٣ الاف (ملوك الموصل ٨٧) ومما زاد في قوته وخطره ان انضم اليه عماد الدين زنكي وارسل اليه نجدة . فالتحم الجيشان واكثر القتل والاسر في عسكر الخليفة ثم القي القبض على الخليفة نفسه وعلى بعض وزرائه وحاشيته واودعوا السجن[4] . ثم ان السلطان مسعود ارسل من قبله رسولا تدعوه المصادر "بك ابه" الى بغداد فدخلها وقبض على جميع املاك الخليفة وبذلك ثارت الفتنة في بغداد[5] وتذكر المصادر ان نفرا من الباطنية لا يتجاوزون الاربعة والعشرين هجموا على الخليفة وقتلوه وبايعوا بالخلافة بعده الامير ابا جعفر المنصور بن المسترشد بالله في يوم الاثنين السادس والعشرين من ذى القعدة ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م[6]

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٧
٢ . ملوك الموصل ٨٧ ، ابن الاثير ١١ : ٨
٣ . ملوك الموصل ، ٨٧
٤ . ملوك الموصل ٩٠
٥ . ملوك الموصل ٩٠ .
٦ . ملوك الموصل ٩١

١٧. زنكي يحاصر دمشق ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م

عمّت الفتن البلاد واضطرب حبل الامن فيها ، وثارت بغداد محتجة على اعمال السلطان مسعود وقيامه بالثورات على الخليفة ومحاولته نزع السلطة منه . في هذه الاثناء وقبل مقتل الخليفة المسترشد ، قام بعض الطامعين يلعبون دورهم ويسعون لتحقيق غاياتهم . وانها لعمرى فرصة سانحة لمن يريد ان يصيب هدفه ومن احق من زنكي ان يقوم ويغتنم فرصة هذه الاضطرابات ليكمل فتوحاته ويثبت قدمه . وفي الواقع قام زنكي في اول جمادى الاولى من سنة ٥٢٩ هـ نفسها[1] وسار جنوبا نحو دمشق يريد محاصرتها ، وكان الخليفة اذ ذاك مشتبكا والسلطان مسعود في الفتن . ودمشق كما يعلم الجميع ذات موقع له اهميته من الناحيتين الحربية والتجارية (باركر ٣٥) وارسل الرسل الى صاحب مدينة دمشق شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بورى بن طغتكين[2] يطلب اليه ان يتنازل عن ولايته ويسلمه مدينة دمشق ، فوصلت الرسل الى المدينة لتقرير قواعد السلم ، ولكن لم يلبثوا ان علموا بمقتل شمس الملوك حتى عادوا الى زنكي مكرمين محترمين واخبروه الخبر بمقتل صاحب دمشق شمس الملوك[3] بمؤامرة دبرتها والدته صفوة الملك خاتون[4] (ابن القلانسي ٢٤٦) وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم وبالغ في العقوبات لاستخراج الاموال[5]، كما اخبروه ايضا بان الشعب متفق على طاعة شهاب الدين والامر مستقر له[6] . ولكن عماد الدين زنكي لم يحفل بكل هذا بل سار الى الشام حتى وصل ظاهر دمشق وخيّم بارض عذراء الى ارض القصير في عسكر كثيف الجمع (ابن القلانسي ٢٤٦) وحاصر المدينة فقرر اهلها صدّه عنها ومحاربته (ابن القلانسي ٢٤٧) وصمدوا في الدفاع عنها ، وكان الوزير معين الدين انر قد تولى امر تنظيم الدفاع ، مما اضطر زنكي ان ينتقل من محله الاول الى ميدان الحصى[7] واخذ يقاتل جندها فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما

---

١. ابو الفداء ٣: ٩ ، ابن القلانسي ٢٤٥   ٢. ابن الاثير ١١: ٨ ابن القلانسي ٢٤٥
٣. ابن الاثير ١١: ٨   ٤. ابن الاثير ١١: ٨   ٥. ابن الاثير ١١: ٨
٦. ابن الاثير ١١: ٨
٧. ابن الاثير ١١: ٩

على محاربته وارجاعه عنها [١] ، ثم انه في هذه الاثناء اقبل اليه الرئيس بشر بن كريم بن بشر الجزرى [٢] من قبل المسترشد بالله بخلع اعدّت اليه وبلّغه امر الخليفة بصلح صاحب دمشق الملك محمود ، فنزل اتابك عند امر الخليفة ورحل عن الشام لليلتين مضين من جمادى الاولى سنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م [٣] .

١٨ . الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود والتجاء الخليفة الى الموصل

سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م

وهكذا انقضت سنة ٥٢٩ هـ دون ان يحدث زنكي فيها فتحا ذا اثر بارز يذكر . وتلتها سنة ٥٣٠ هـ . ولعلّ اشهر ما ترويه المصادر عن اخبار هذه السنة سير الخليفة الراشد بالله الى الموصل مع اتابك زنكي ، وسبب التجاء الخليفة الى الموصل ان تألّب العسكر على السلطان مسعود واجمعوا على قتاله وتولية سلطان آخر يرتضونه ، وقرروا الاجتماع في بغداد للمداولة في هذا الامر ، فسار الامراء من جميع الجهات الى بغداد للاشتراك بهذا الاجتماع ، فكان فيمن سار اليها من الموصل الاتابك عماد الدين زنكي ، وحضر هذا الاجتماع العام الخليفة نفسه الراشد بالله ، ويظهر ان الامراء اثروا عليه واقنعوه بوجوب الخروج معهم عن بغداد لمحاربة السلطان مسعود ، فأجابهم الى ذلك واجتمعوا على هذا العزم في صيف سنة ٥٣٠ هـ . ولكن ظهر للخليفة تلّون من بعض اصحابه ، فالقى القبض على جماعة منهم وبينهم وزيره جلال الدين ابو الرضى محمد بن احمد بن صدقة [٤] وجمال الدولة اقبال المسترشدى [٥] ، وسار وموكبه الى اتابك الشهيد ونزل في خيمته [٦] . وتذكر المصادر ان زنكي اخذ يتشفع لدى الخليفة على هؤلاء الذين القى القبض عليهم ، فاطلق الخليفة الراشد بالله سراحهم وسلم اقبال المسترشدى الى الشهيد [٧] لانه اظهر من العناية بامره اكثر من غيره ، فاكرمه زنكي واحسن اليه . على انه في هذه الاثناء ورد الخبر بان الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد

---

١. ابن الاثير ١١ : ٩   ٢. ابن الاثير ١١ : ٩ ، ابن القلانسي ٢٤٨

٣. ابن القلانسي ٢٤٨ ، ابن الاثير ١١ : ٩ ، ابو الفداء ٣ : ٩

٤. ابن الاثير ١١ : ١٥   ٥. ابن الاثير ١١ : ١٥

٦. ابن الاثير ١١ : ١٥   ٧. ابن الاثير ١١ : ١٥

قد وصل الى واسط في جمادى الاولى في عسكر كثير فانحدر الاتابك اليه ليحاربه . ويظهر ان خلافا وقع بين سلجوق شاه واتابكه البقش فاستغل اتابك زنكي هذا الخلاف واستمال اليه البقش وفارقوا سلجوق شاه وعاد عماد الدين ومن معه الى بغداد . فتبعه اليها السلطان مسعود[1] ،عندها خرج الخليفة الراشد بالله من دار الخلافة ونزل على عماد الدين ملتجأ وسار معه الى الموصل تاركا بغداد[2] فدخلها السلطان مسعود واستقر له الامر فيها في ذى القعدة من السنة المذكورة وعزم على خلع الخليفة الراشد واخذ البيعة لغيره فوافقه على ذلك الامراء وارباب المناصب في بغداد ،فاحضر القضاة والشهود والفقهاء وقرروا خلعه من الخلافة واخذ البيعة الى ابي عبد الله . فلما وصل الخبر الى الراشد بالله الخليفة السابق والى عماد الدين زنكي ،ارسل كل منهما رسولا الى السلطان ،فاعرض هذا عن رسول الخليفة واقبل على رسول عماد الدين وهو كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى فاكرمه ،واقطع الخليفة الجديد زنكي صريفين ودرب هرون وزاد في القابه ونال زنكي في ذلك ما لم ينله غيره من امراء الاطراف[3] . اما الخليفة الراشد بالله ،الخليفة المخلوع ،فقد خرج الى اذربيجان بناء على طلب السلطان سنجر فتصدى له جماعة من الباطنية[4] ،وقتلوه في السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٢ هـ[5] .

١٦ . غزو العسكر الاتابكي بلاد الفرنج ٥٣٠ هـ = ١١٣٥م ـ ١١٣٦م

وقبل ان نطوى صفحة على اخبار عام ٥٣٠ هـ لا بد لنا من ان نأتي على ذكر ما قام به عسكر الاتابك عماد الدين زنكي من غزو بلاد الفرنج . فان المصادر تذكر انه في غضون سنة ٥٣٠ هـ[6] سارت عساكر عماد الدين من حلب وحماه يريدون غزوالفرنج وكان على رأسهم اسوار نائب زنكي في مدينة حلب[7] ،قادهم اسوار

١ . ابن الاثير ١١ : ١٥ ، سنقريوسر ١٨٢   ٢ . ملوك الموصل ٩١ ،المقريزى ١ : ١ : ٣٧
٣ . ملوك الموصل ٩١   ٤ . الروضتين ٣١ ،ابو الفداء ٣ : ١٤
٥ . الروضتين ٣١ ،ابو الفداء ٣ : ١٤ ، المقريزى ١ : ١ : ٣٧
٦ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ،ابن الوردى ٢ : ٤٠
٧ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ،ابن الوردى ٢ : ٤٠

حتى وصلوا نواحي مدينة اللاذقية[1] ، فهاجموا الفرنج واوقعوا بهم حتى اذا ظفروا بهم نهبوهم وقتلوهم واسروهم "فعلوا ما لم يفعله غيرهم"[2] . وقد بلغ عدد الاسرى الذين اسروهم في وقعة اللاذقية هذه سبعة الاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي .[3] ويتابع ابن الاثير روايته في ذلك فيقول "وغنم عسكر الاتابك مائة الف رأس من الدواب وما سوى ذلك من الاقمشة والحلي"[4] . وقد خربوا اللاذقية عندما ارادوا العودة لبلادهم كي لا يكون للاعداء فيها ملجأ .[5]

٢٠ . حصار زنكي مدينة حمص ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م

لقد اتينا فيما مضى على حصار زنكي لهذه المدينة عام ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م ولا بد لنا الآن ان نعيد البحث في حصار زنكي لهذه المدينة للمرة الثانية وذلك في منتصف سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م وقد ذكر ابن الاثير في كامله هذه الرواية باسهاب ، ونحن نكتفي هنا بالاشارة اليها مع بعض التفصيل .

لما كان شهر شعبان عام ٥٣١ هـ جهّز زنكي جيشه وتأهب للرحيل الى حمص[6] . وقبل سيره اليها ارسل كمقدمة لحملته حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني[7] في مهمة خاصة يرمي من ورائها ان يدبّر امر استلام المدينة عن طريق التسليم والصلح ، وكان صلاح الدين هذا ممن لا تعوزهم الحيلة والحنكة السياسية، وقد وصفه ابن الاثير في كتابه الكامل يقوله " وكان ذا مكر وحيل"[8] . وصل هذا الرسول مدينة حمص واتصل فيها بأميرها (معين الدين انر) من اكابر امراء دمشق وحمص على السواء ، ولكن يظهر ان سياسته قد فشلت وذلك انه اخفق في مهمته فسارت حينئذ جيوش زنكي تريد الاستيلاء على حمص قهرا وضرب البطل المغوار حصاره على المدينة ، ولكنه لم يلبث حتى شعر بقوة المدينة فأراد ان ينفذ آخر سهم في كنانته فارسل رسله ثانية الى معين الدين انر يفاوضونه في امر تسليمها ويتهددونه

---

١ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٠   ٢ . ابن الاثير ١١ : ١٦
٣ . ابن الاثير ١١ : ١٦   ٤ . ابن الاثير ١١ : ١٦   ٥ . ابن الاثير ١١ : ١٦
٦ . ابن القلانسي ٢٥٨   ٧ . ابن الاثير ١١ : ٢١
٨ . ابن الاثير ١١ : ٢١

بالوعد والوعيد ، ولكن انر ابى الآ ان يقف من المواجمين موقف المدافع واحتج في ذلك "بانها ملك صاحبه شهاب الدين وانما بيده امانة ولا يسلمها الا عن غلبة".[1] وصمد فعلا ضد غارات عماد الدين وهجماته حتى اعيا امره الجيش المحاصر، فحدثت عماد الدين نفسه بالرحيل لا سيما وان الاخبار بلغته بان الافرنج قد ساروا لنجدة حمص ، فازمع زنكي تجاه ذلك على الرحيل لمقاتلة هؤلاء الفرنج واضطر لرفع الحصار عن حمص ردحا من الزمن دون ان يبلغ وطره منها ، وسار في شوال سنة ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعرين[2] .

٠٢١ ملك زنكي قلعة بعرين ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م

ولئن شاءت الاقدار ان تخيّب امل زنكي في حمص فلم تشأ ان تعاكسه في بعرين ، بل كان التوفيق حليفه في حملته هذه وقد زاده فتح هذا الحصن من الشهرة فوق ما كان له ، فطار صيته في الامصار وطبق اسمه الافاق . سار زنكي في شوال من عام ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعرين الذى هو على ما تذكره المصادر من امنع حصون الفرنج القريبة من مدينتي حلب وحماه[4] والمصادر متفقة على ان استيلاء عماد الدين زنكي على حصن بعرين كان في غضون عام ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م .[5]

سار زنكي كما اسلفنا يريد مقاتلة الفرنج وكانوا على اهبة المسير الى حمص للنجدة . فتلاقى الفريقان بالقرب من حصن بارين المسمى اليوم ببعرين (ملوك الموصل ١٠٥) ، وكان الفرنج قد جاءوا فرسانا ومشاة لصد غارات المسلمين[6] . ولما رأى زنكي قوة اعدائه شعر بخطورة الموقف وجمع عساكره واخذ يحثهم على الجهاد ويحرضهم على قتال الكفرة الاوغاد[7] ونظّمهم ورتّبهم ثم امرهم بالهجوم ، فهجموا بشدة وعنف واعملوا السيف في رقاب الاعداء "ولم يزل هذا دأبهم حتى حمي الوطيس

---

٠١ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابن القلانسي ٢٥٨

٠٢ ابن الاثير ١١: ٢١   ٠٤ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، ستيفنسن ٢٥٩

٠٥ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابو الفداء ٣: ١٢ ، ابن الغزى ٨٩ الحريرى ٥٤ ، منتريوس ١٨٣ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، كرد علي ٢: ١٠ ، باركر ٣٥ ستيفنسن ١٣٧ ، الموسوعة ٤: ١٢٢٥

٠٦ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ملوك الموصل ١٠٥ ، ابو الفداء ٣: ١٢

٠٧ ملوك الموصل ٩١ .

فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس، وارتفع القتام، واشتد الزحام، وعظم الزحام وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور، الاما يحكى عن ليلة الهرير".[١] ولم يدم الامر طويلا حتى تسرّب الضعف والوهن الى قلوب الفرنج فلم يروا بدا من الهرب ففرّوا مسرعين والمسلمون يطاردونهم بالرماح والنبال، فالتجأوا الى حصن بعرين لعله ينجيهم من قسوة الاعداء، ودخلوا الحصن الوفا واحتموا به وظل زنكي يطاردهم حتى حصن بعرين وحاصره وحاول اقتحامه، ويظهر ان هذا الحصن كان من امنع الحصون واحصنها، وصفه جميع المؤرخين بالمناعة، وقد اجاد صاحب كتاب ملوك الموصل في وصف هذا الحصن وترك لخياله العنان فانطلق عن لسانه في ذلك شعر منثور. يقول ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل بعد ان يصف حصار عماد الدين زنكي لحصن بعرين "فحين نازله طاف به وتأمله، فرأى حصنا محلّقا في الهواء، مقارنا هامة الجوزاء، قد فاق الجبال الراسيات وبازها سموا، وقد تشبث بانفه عن ان يرام، ونأى بجانبه عن ان يضام، فلا ترمقه الابصار الا عادت حيرة، ولا تؤمّه الطيور الا اضحت اجنحتها مهيضة كسيرة، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم، وكنبولهم وشيانهم، واثقين بحصانته، متيقنين ان الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون، وان الايام لا تنفذ سهامها فيهم وهم فيه يقمون، وانى يكون ذلك وقد احدقت بهم الاسد في عرينها، الذابة عن دين الله تعالى ودينها".[٢]

استمر عماد الدين زنكي ورجاله في حصار الحصن يمطرون من فيه بوابل من السهام، وحجار المنجنيق، حتى ادخل في قلوبهم الرهبة والذعر ولم يجدوا الى التخلص من نار الاعداء سبيلا الا بالاستسلام وطلب الامان حقنا لدمائهم وراسلوا زنكي في ذلك ولكنه ابى الا ان يستمر في قتالهم الى النهاية وان يدخل الحصن قسرًا وقهرا. وفيما هو يتابع قتاله اذ بلغه ان بعض الذين نجوا من القتال قد اسرعوا الى بلاد الفرنج يستنجدونهم، فكان ذلك حافزا له على تشديده في امر الحصار وتضييقه على ساكنيه وهم لا يزالون يرسلون اليه الرسول تلو الرسول يسترحمون ايقاف القتال ويعدون بالاستسلام، فأجابهم اخيرا الى ذلك وتسلم الحصن و(٥٠ الف دينار) بعد ما اعطى الناس الامان.[٣]

---

١. ملوك الموصل ١٠٧ ٢. ملوك الموصل ١٠٩ ـ ١١٠

٣. ابن القلانسي ٢٥٩، ابن الاثير ١١: ٢١، ابو الفداء ٣: ١٢، منتزبور ١٨٣، كرد علي ٢: ١٠

وبذلك قبض زنكي على ناصية ثغر من اهم ثغور الروم في البلاد الشامية الشمالية ، وحصن من اخطر حصون الفرنج على سلامة الدولة الاسلامية . يظهر ان استيلاء المسلمين على حصن بعرين قد زاد زنكي حيوية ونشاطا ، اذ تذكر المصادر انه في اثناء حصاره الحصن الكبير ، سيّر جندا الى المعرّة وكفرطاب واستولى عليهما [1] ، واعاد فيهما الى الناس املاكهم التي كان قد سلبها الفرنج من قبله . [2]

٢٢ . ملك زنكي حمص سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٨ م

واستتب لزنكي الامر ردحا من الزمن وعادت البلاد الى القرار والاطمئنان ومضت بعد ذلك الايام دون ان يحدث فيها حادث هام يسترعي انتباه التاريخ والمؤرخين ، وانصرف عماد الدين زنكي الى اقرار حياته الداخلية وتثبيت دعائمه في البلاد التي فتحها واعداد العدة للمستقبل ، حتى بزغ فجر عام ٥٣٢ هـ اذ وجد زنكي من نفسه حافزا للفتوح ومن قوته دافعا للهجوم ، فجهز جيشه واعدّه للرحيل الى حيث الفتوح والغنائم ، ونفخ بوق النفير في المحرم من السنة المذكورة [3] وسار على رأس جيشه نحو حمص ، فمرّ في طريقه بحماه ثم عرّج في طريقه على بعلبك ، فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق ، ولما سمع بذلك متحفظ بانياس ، وبانياس لصاحب دمشق ايضا ، سارع الى مراسلته وتقديم الطاعة اليه ثم سار زنكي قاصدا مدينة حمص حتى وصلها فضرب عليها الحصار واستمرّ يقاتل اهلها الى ان بلغه امر هجوم الروم على حلب فاضطر لان يرفع الحصار عن حمص ويرحل عنها الى (السلمية) حتى اذا انجلت حادثة الروم عاد الى حمص فضرب عليها الحصار ونازلها وارسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه امه ليتزوجها [4] واسمها على ما تذكره المصادر زمرد خاتون ابنة جاولي [5] ، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك ، ويظهر ان شهاب الدين نزل عند ارادة زنكي فسمح له بالزواج بامه ، فتزوجها زنكي في رمضان سنة ٥٣٢ هـ [6] وخضعت له حمص وقلعتها . ولا تذكر المصادر باسباب الاسباب التي

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٢٢ ، ابو الفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي ٢ : ٤١

٢ . ابن الاثير ١١ : ٢٢ ، كرد علي ٢ : ١٠ ٣ . ابو الفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي ٢ : ٤٢ كرد علي ٢ : ١١ ، منقريوس ١٨٣ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٢ ، ابو الفداء ٣ : ١٢ ابن القلانسي ٢٦٦ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، ابو الفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي ٢ : ٤١ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٢٣

حملت زنكي على التزوج بام شهاب الدين صاحب دمشق ، ولعل اقرب الاقوال الى الصواب ما يذهب اليه ابن الاثير في كامله من ان الدافع الاول لهذا العمل هو امل زنكي في الاستيلاء على دمشق من وراء هذا الزواج لما تتمتع به زمرد خاتون من النفوذ والسلطان[١] . ولكن زنكي لم يبلغ النهاية التي كان يستهدفها ، بل خاب امله ولم يحصل على مدينة دمشق .[٢]

١٣ . زنكي وملك الروم ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ ـ ١١٣٨م

لقد اثار استيلاء المسلمين على حصن بعرين حفيظة الروم واوقد النار في قلوبهم لانه افقدهم ثغرا من اهم ثغورهم ومركزا من اهم مراكزهم الحربية . فعمل ملك الروم على تجنيد رجاله للسير الى بلاد الشام ، وتوطيد قدمه في ارضها واستعادة ما فقد منها . حتى اذا كانت غضون سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ ـ ١١٣٨م خرج الروم من القسطنطينية في عدد عديد وعدة عظيمة ، ساروا جنوبا نحو الشام حتى وصلوا مدينة بزاعة ، وهي على مرحلة من حلب فحاصروها وفتحوها بامان[٣] حتى اذا دخلوها اتوا عليها قتلا وسلبا وعاثوا فيها فسادا سجله التاريخ عليهم في صفحاته[٤] . ويقول ابن الاثير في كامله "وكان عدة من جرح فيها من اهلها خمسة الاف وثمانمائة نفس ، وتنصر قاضيها وجماعة من اهلها نحو اربعمائة نفس".[٥] ثم رحلوا الى حلب فلم يحصلوا على شيء ، فرحلوا عنها الى قلعة الاثارب ، فهرب اهلها عنها فملكوها [٦]

وبعد ان دانت لهم مدينة بزاعة والاثارب ساروا جنوبا الى قلعة شيزر وهي على ما تذكره المصادر "حصن منيع على مرحلة من حماه"[٧] . وتقول المصادر ان حصار الروم لهذه القلعة كان على اساس انها ليست لعماد الدين زنكي ، وانما هي للامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني[٨] ،

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، منقريوس ١٨٣ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، منقريوس ١٨٣
٣ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، ملوك الموصل ٩٨ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ٧ . ملوك الموصل ٩٨ ، الروضتين ٣٨ ، الحريري ٥٦ ٨ . ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، ملوك الموصل ٩٨ ابو الفداء ٣ : ١٣ ، الروضتين ٣٢ ، منقريوس ١٨٤ ، ابن الوردى ٢ : ٤٢

فنصب الروم على المدينة المنجنيقات، ويذهب الرواة الى انها كانت ثمانية عشر منجنيقا [1] وشددوا الحصار على المدينة وضيّقوا على اهلها، فاضطر هؤلاء لاجالة الطرف باحثين عن قوة تنجدهم، فلم يجدوا اقوى من عماد الدين زنكي، فأرسلوا اليه الرسل يستنجدونه، فسار اليهم ونزل على نهر العاصي، كما يذكر ذلك ابن الاثير في كتابه الكامل. [2]

ولما وصل عماد الدين القلعة بعث الى ملك الروم بطلب يذكره ابن الاثير [3]، ومؤداه على لسان صاحب الكامل "انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وان ظفرتم استرحتم واخذتم شيزر وغيرها." ولكن ملك الروم لم يأبه بكلام زنكي، بل ظل مثابرا على حصاره، فعمد زنكي آنئذ الى الحيلة، وزنكي ممن يحسنون الحيل والخدع فأرسل لملك الروم يوهمه بان اهل الشام منشقين عليه وليسوا معه، وفي الوقت نفسه ارسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم [4]. ويظهر ان سياسة زنكي هذه قد اتت أكلها، فرحل ملك الروم عن شيزر بعد ان صونح بمال [5] في رمضان بعد ان اقام عليها (٤٠ يوما) [6]، تاركا آلات الحصار من منجنيقات وغيرها [7]. فسار اليها عماد الدين زنكي [8] وظفر بجميع ما تركوا ورفعه الى قلعة حلب [9] وبذلك خلّص زنكي الحصن من الروم [10]، فانطلق بذلك لسان الشعراء في مدح عماد الدين زنكي وتعداد مناقبه. قال المسلم بن الخضر بن قيم الحموى:

بعزمك ايها الملك العظيم ... تذلّ لك الصعاب وتستقيم
الم تر ان كلب الروم لما ... تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا ... كأن الجحفل الليل البهيم [11]

---

١. ابو الفداء ٣: ١٣، ابن الوردى ٢: ٤٢، منقريوس ٢٨٤   ٢. ابن الاثير ١١: ٢٣
٣. ابن الاثير ١١: ٢٣   ٤. ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ١٠٢، الروضتين ٣٢، كرد علي ٢: ١٢   ٥. ابن الاثير ١١: ٢٣، الروضتين ٣٢، ستيفنسن ١٤١
٦. ابن الاثير ١١: ٢٣   ٧. ملوك الموصل ١٠٢   ٨. اسامة بن منقذ ٣، ابن الاثير ١١: ٢٣، ابو الفداء ٣: ١٣، ابن الوردى ٢: ٤٢
٩. ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢   ١٠. ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢ ابن القلانسي ٢٦٤، ستيفنسن ١٤١   ١١. ابن الاثير ١١: ٢٤

وبعد ان تم لزنكي ملك شيزر سار عنها جنوبا الى حصن عرقة ، وهو من اعمال طرابلس ، فالقى عليه الحصار ولم يزل به حتى فتحه عنوة ، ولم يمتلك نفسه عن نهبه وسلبه وتخريبه واسر من به من الفرنج مقابل ما قام به ملك الروم قبل ذلك في شيزر من نهب وسلب .[1]

٢٤ . ملك زنكي بعلبك ٥٣٣ هـ = ١١٣٩ م

سرنا مع زنكي في حروبه في الشام واستيلائه على حصن بعرين ثم على حمص ، ووقفنا عند جهاده مع ملك الروم وفتحه مدينة بزاعة وقلعة شيزر واخضاعه حصن عرقة . ولا بد لنا ونحن نؤرخ سيرته من ان نتابع احداثه بكاملها ، واذا نحن راجعنا المصادر التاريخية وجدناها لا تقف عند ذكر جهاده مع الروم ، بل تتابع ذلك الى ذكر باقي سيرته المليئة بالاحداث . ولعلّ اشهر ما تذكره عن عماد الدين بعد حروبه مع الروم ، ملكه مدينة بعلبك في ذى القعدة من سنة ٥٣٣ هـ ، اغسطس سنة ١١٣٩ م ، باجماع المصادر التاريخية التي بين ايدينا[2] وسبب مسيره الى بعلبك انه لما قتل محمود صاحب دمشق بلغ خبر نعيه اسماع والدته زمرد خاتون زوج عماد الدين زنكي وهي في حلب ، فأكلم ذلك قلبها وعرّضها الى اشد نوازل الحزن والاسى[3] ، وكان مما يزيد في المها واساها انه قتل غدرا . لذلك لم تأل جهدا في الاخذ بثأره ، فأرسلت الى زوجها عماد الدين وهو يومئذ بديار الجزيرة[4] تخبره الخبر وتحرّضه بحرارة على قصد دمشق والانتقام لولدها من اولئك الذين غدروا به ظلما وعدوانا . فما ان بلغت الرسالة بعلها[5] ، عماد الدين زنكي ، حتى بادر في الحال الى تلبية طلبها ، وكيف لا ينزل زنكي عند ارادتها من السير الى الشام ، وهو الذى يحلم في هذه الامنية منذ امد بعيد . سار زنكي الى دمشق مستبشرا وكله امل ان الوقت قد حان لاستيلائه عليها . ولكن اخبار مسيره وصلت دمشق قبل ان يصل اليها جيشه فاحتاط من بها واستعدوا " واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله " .[6] واقاموا ينتظرون وروده

---

١ . ملوك الموصل ١٠٢   ٢ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ١١٢٥   ٣ . ابن الاثير ١١ : ٢٨

٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٨   ٥ . ابن الاثير ١١ : ٢٨   ٦ . ابن الاثير ١١ : ٢٨

اليهم ليقاوموه اشد المقاومة . وفي هذه الاثناء بينما كانت دمشق تستعد لاستقبال عماد الدين زنكي بالحراب ، كان زنكي من قبله يراسل معين الدين انر صاحب بعلبك ووزير دمشق ، يبذل له البذول العظيمة ، طالبا منه تسليم دمشق[1] ، فلم يأبه معين الدين لمواعيد زنكي ولم يردّ عليه ، مما اضطر زنكي ان يعرض عن خطاته في حصار دمشق موقتا ، ويسير الى بعلبك ينزل بصاحبها ضربته القاضية . وسار فعلا اليها ، فنزلها في العشرين من ذى الحجة سنة ٥٣٣ هـ ، ونازلها بعساكره ، وجدّ في محاربتها ، ونصب عليها من المنجنيقات اربعة عشر منجنيقا[2] ، ولم يزل يضيق عليها الخناق حتى اوشك اهلها على الهلاك ، فلم يجدوا بدا من مراسلته وطلب الامان ، فأجابهم الى مطالبهم وتسلّم المدينة[3] . الا ان قلعتها لم تزل في ايدى شرذمة قليلة من اهل بعلبك ، ممن ابو التسليم والخضوع[4] ، فقاتلهم زنكي اشد القتال حتى تسرب اليأس والجزع الى قلوبهم ، فاضطروا لطلب الامان والتسليم والاذعان ، فأمنهم وتسلم القلعة[5] ، حتى اذا ما نزلوا منها غدر بهم ، وامر بصلبهم ، فصلبوا[6] ، ويضيف الى ذلك ستيفنسن قائلا "ان عماد الدين زنكي اقسم بالقرآن الكريم ، وبطلاق ازواجه بحفظ ارواح من في القلعة ، ولكنه احنث ، فطرد الحاكم وشنق ٣٧ رجلا من اتباعه" ستيفنسن ١٤٤ . فكان لعمل عماد الدين هذا اسوأ الاثر في نفوس اهل دمشق ، مما زادهم حنقا عليه ، ونشاطا في مقاتلته . وبعد ان دانت له بعلبك بأسرها ، ولّى عليها نجم الدين ايوب والد البطل صلاح الدين الايوبي[7] .

٢٥ . زنكي يضرب الحصار على دمشق ، ربيع الاول ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

بعد ان فرغ زنكي من امر بعلبك ، وقرر قواعدها ، واصلح حالها ، سار الى دمشق هدفه الاسمى ، فنزل بارض البقاع ، وارسل الى جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين صاحبها[8] ، يخبره بالامر ، ويقترح عليه ان يسلم اليه دمشق مقابل

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٢٩ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٢١ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣
٣ . ابن الاثير ١١ : ٢٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، القرماني ٢٧٦ ، ستيفنسن ١٤٤ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ، ابو الفداء ٣ : ١٤
٥ . ابن الاثير ١١ : ٢٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٢٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣ ٧ . ملوك الموصل ١٠٥
٨ . ابن الاثير ١١ : ٣ ، ملوك الموصل ١٠٣ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

بلد آخر يسمه زنكي اليه ، فلم يجبه جمال الدين الى ذلك[١] . فلم ير زنكي بدا من السير الى دمشق ومحاربة اهلها وفتحها عنوة . فسار اليها ونزل داريا[٢]، ثلاث عشر يوما خلت من ربيع الاول علم ٥٣٤ هـ[٣] فالتقت طلائع جيشه بطلائع جيش دمشق ، فاقتتلوا ، وكان الظفر فيها لعسكر زنكي ، فعاد الدمشقيون منهزمين بعد ان قتل اكثرهم[٤] . فلحق بهم زنكي الى ان وصل ابواب دمشق فتصدى له جيش الاعداء وقاتلوه وقاوموه ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن كان يتبادل فيها ضرب السيف ووخز الحراب ، حتى انتهى الامر بانهزام الدمشقيين ، واشرفت مدينة دمشق على الهلاك والاستسلام[٥] ، ولكن زنكي امسك عنها مدة عشرة ايام[٦] ، وتابع رسله الى صاحبها يبذل له حمص وبعلبك وغيرها مما يختاره من البلاد مقابل ان يتخلى له عن دمشق[٧] ، فمال جمال الدين الى التسليم[٧] ، ولكن عارض في ذلك اصحابه وآثروا المقاومة والحرب الى النهاية ، فعاد القتال والزحف الى اشده . وقد حدثت في هذه الاثناء ان مرض جمال الدين محمد صاحب دمشق ومات ثمان ايام خلت من شعبان سنة ٥٣٤ هـ[٨] فولي الملك بعده ابنه مجير الدين ابق[٩] ، وقام معين الدين انر في ترتيب دولته ، فزاد كل ذلك في طمع عماد الدين زنكي ، ودفعه لان يضرب المدينة بشدة وعنف ، ولم يزل كذلك حتى اضطر انر الى الاستنجاد بالفرنج[١٠] ، واستدعاهم الى نصرته ، ودفع زنكي عن دمشق ، وبذل لهم في ذلك الاموال ، ووعدهم ببانياس بعد انتزاعها من يد واليها ابراهيم بن طرخت[١١] ، واخذ يخوفهم من عماد الدين زنكي ان هو ملك دمشق[١٢] . ويظهر ان الفرنج اقتنعوا بما قاله معين الدين انر[١٣] ، فقرروا نجدة دمشق ، وتأهبوا للرحيل اليها ، حتى اذا علم زنكي بذلك سار الى حوران خامس رمضان من سنة ٥٣٤ هـ وتذكر المصادر انه كان عازما على قتال الفرنج قبل ان يلتقوا بالدمشقيين[١٤] . فلما علم الفرنج بخبره لم يفارقوا بلادهم[١٥]

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٣
٣ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٢ ، الحريري ٥٧ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٣٠
٥ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧١ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ٧ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ٨ . ابن الاثير ١١ : ٣٠
٩ . ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
١٠ . ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣
١١ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ستيفنسن ١٤٥ ١٢ . ابن القلانسي ٢٧٢ ١٣ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ١٤ . ستيفنسن ١٤٥ ، ابن الاثير ١١ : ٣٠ ١٥ . كرد علي ٢ : ١٢ـ١٣ .

فعاد زنكي الى حصار دمشق ونزل بعذرا[١] ، في اليوم السادس من شهر شوال سنة ٥٣٤ هـ . وتذكر المصادر عنه انه احرق عدة قرى في المرج والغوطة[٢] .
ثم انه لما رأى من صمود دمشق ما رأى ، وسمع من نصرة الفرنج لاهل دمشق ما سمع ، رحل عائدا الى بلاده[٣] . ولم يلبث ان ترك بلاد الشام ، حتى وصل الفرنج مدينة دمشق ، واتصلوا بصاحبها واهلها .

وبعد ان اقام الفرنج بدمشق قليلا ، سار معين الدين انر الى بانياس وفاء بوعده للفرنج[٤] . وكانت بانياس يومئذ في طاعة عماد الدين زنكي ، موليا عليها من قبله ابراهيم طرخت الذى مر ذكره الان[٥] ، فضرب عليها الحصار ، ولم يزل الفريقان يتقاتلان حتى استطاع معين الدين انر بمساعدة من معه من جند الفرنج ، من الاستيلاء على مدينة بانياس ، وتسليمها الى الفرنج بناء على ما كان قد قطعه على نفسه من العهود[٦] .

انتشرت الاخبار ان الفرنج قد استولوا على مدينة بانياس بمؤامرة دبرها معين الدين انر ، وان عسكر عماد الدين فيها قد انهزم وتشتت ، وبلغت الاخبار تلك فيمن بلغت اليه اسماع عماد الدين زنكي ، صاحب بانياس ، فثار غضبا ، من عمل معين الدين انر خصوصا ، وازمع على الرحيل اليه ، ومقاتلته حتى النهاية .

جمع عماد الدين فلوله ، واعدّ لذلك جيشا جبارا ، ووزّعه على اعمال دمشق[٧] ، فسارت فرقة من جيشه الى حوران ، وسار هو على رأس معظم جيشه الى دمشق ونازلها سحرا[٨] وضرب عليها الحصار ثانية ، حتى اذا اصبح الصباح علم اهل دمشق بالخبر وايقنوا من الخطر المحدق بهم ، فضربت ابواق الجهاد ، ونودى بالنفير العام ، فاجتمع العسكر على السور ، وفتحت الابواب ، والتحم الجيشان في ملحمة عنيفة ، اسفرت عن تراجع الجيش الاتابكي[٩] لما حلّ به من فتك الاعداء ، فرحل عماد الدين الى مرج راهط[١٠] ، حيث اقام خيامه ، منتظرا عودة فلول جيشه المغلوب على

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريرى ٥٧ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريرى ٥٧ ٣ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣ ، منقريوس ١٨٢ ، الحريرى ٥٨ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ستيفنسن ١٤٥ ٥ . ابن القلانسي ٢٧٢ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ، كرد علي ٢ : ١٢—١٣ ٧ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ٨ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ، الحريرى ٥٨
٩ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ١٠ . ابن الاثير ١١ : ٣١

امره ، والمخذول في خطته ، حتى اذا عاد اليه ، وقد ملئت ايدى افراده بالغنائم لانهم "طرقوا البلاد واهلها غافلون"[1] رحل بهم عائدا الى بلاده صفر اليدين .

وهكذا نلاحظ ان قوة زنكي وان كانت تثبت امام البلاد الشامية ، وتقتحم الحصون والثغور ، الا انها تقف مكتوفة الايدى امام دمشق لا تبدى حراكا . فمرتان في هذه السنة ، سنة ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م[2] يحاول عماد الدين زنكي الاستيلاء على دمشق وتخيب آماله الظروف ، ومرتان يلقي عليها حصاره ويعود منها خائبا محسورا ، ممنيا نفسه انه في مناسبة اخرى سوف يمدّ اليها يده وسلطانه ، وقد بقي زنكي طول حياته وهو يأمل هذا الامل ، ويحلم هذا الحلم ، ولكن عبثا يحاول زنكي ، اذ وقفت الاقدار بوجهه ، وردته عن تحقيق مبتغاه .

٢٦ . ملك عماد الدين زنكي قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

عاد عماد الدين زنكي من دمشق بعد ان حاصرها الحصار الثاني خائبا ، معللا نفسه بالعودة اليها في يوم آخر وهو اكثر عددا واقوى عدة ، ووجه انظاره موقتا عنها الى غيرها مما هو اضعف منها مناعة ، واقرب الى الاستيلاء ، فأجال نظره حوله ، فلم يجد اقرب من قلعة شهرزور الحصينة ، فاستعد لمنازلتها ، وجمع فلوله لحصارها . وكانت شهرزور واعمالها وما يجاورها من البلاد بيد قفجاق بن ارسلان تاش التركماني[3] ، وكان ذا سلطان عظيم ، وكلمة نافذة لدى اتباعه التركمان قاصيهم ودانيهم[4] . ومما زاد في نفوذه ، ان احدا من الملوك لم يجرأ على التعرض له[5] لما كانت تتمتع به هذه القلعة من الحصانة والمنعة . فحدثت عماد الدين نفسه ان يتحرّش لهذا الحصن وصاحبه ، ويستولي عليه ، لينعم بموقعه الحصين ، ويقضي على سلطان صاحبه الكبير ، ومن غير عماد الدين زنكي ، ملك الامراء كما يسميه صاحب كتاب الاعتبار ص ٣٠ ، يجرؤ على تحدى مثل هذا الحصن واميره ذى السلطان ،

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ ـ ٣١

٣ . ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣ الروضتين ٣٣ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ملوك الموصل ١٠٢ ، الروضتين ٣٣

٥ . ابن الاثير ١١ : ٣١

فازمع زنكي على ذلك، وجمع اصحابه يعرض لهم رأيه، فحذروه من ذلك، واشاروا عليه بالانصراف عن ذلك لما لهذا الامير من الاعوان والاتباع "وانه ان ضيّق عليه سلّم الولاية الى السلطان مسعود." [1] ولكن، لم يكن ذلك مما يفتّ بساعد زنكي، او يصرفه عن عزمه، فسيّر الى القلعة سنة ٥٣٤ هـ عسكرا كثيرا كما تروى ذلك المصادر [2] وما ان بلغ الامر قفجاق حتى جمع من التركمان من يقدر على حمل السلاح [3]، وكان لديه بذلك جمع كبير، يصفه صاحب كتاب ملوك الموصل بقوله "واجتمع عنده من الكثرة ما سدّ بهم الفضاء." [4]

تابع عسكر عماد الدين زنكي المسير الى القلعة حتى اذا وصلوها، وقعت بين الفريقين معارك حامية الوطيس، دارت فيها السيوف ولعبت فيها الرماح، كان وقعها على عسكر قفجاق عظيما، حتى اذا جنّ الليل، اسفرت المعارك عن هزيمة اهل القلعة وانكسارهم شر كسرة [5]. ففروا منهزمين "لا يلوى اخ على اخيه، ولا ولد على والده [6]." ولحق بهم عسكر زنكي يطاردهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى ابادهم ودخلوا القلعة، ودانت لهم البلاد [6]، فاصلح الشهيد عماد الدين احوالها، واحسن الى اهلها، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من عنت التركمان وجورهم [7]، ودخل قفجاق في جيشهم، وانخرط في عسكرهم "ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها." [8]

٢٧. زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م

مضت سنة ٥٣٤ هـ على ما مر معنا، ودخلت سنة ٥٣٥. ومن يلقي نظرة على المصادر التاريخية يجد ان اهم الحوادث المقرونة باسم عماد الدين زنكي في هذه السنة هي حادثة النزاع الذى حصل بين بطلنا اتابك وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا، ذلك النزاع الذى ادّى الى حرب شديدة بين الفريقين

---

١. ملوك الموصل ١٠٣ ٢. ابن الاثير ١١: ٣١، ملوك الموصل ١٠٢، ابو الفداء ٣: ١٥، الروضتين ٣٣ ٣. ابن الاثير ١١: ٣١ ٤. ملوك الموصل ١٠٣
٥. ابن الاثير ١١: ٣١ ٦. ملوك الموصل ١٠٣ ٦. ابن الاثير ١١: ٣١
ملوك الموصل ١٠٣، ابو الفداء ٣: ١٥، ابن الوردى ٢: ٤٣، الروضتين ٣٣
٧. ملوك الموصل ١٠٣ ٨. ابن الاثير ١١: ٣١

انهزم على اثرها جيش داود وملك زنكي من بلاده قلعة بهمود . ثم يظهر انه ادركه الشتاء فعاد الى الموصل دون ان يجاوز ما اخضع من البلاد [١]. وقضى اتابك بقية هذه السنة في الموصل دون ان يقوم بشيء يذكر .

ثم دخلت السنة التي تليها وهي سنة ٥٣٦ هـ ، ويظهر انها كانت لعماد الدين سنة راحة وسكينة وهدوء ، لان المصادر لا تشير الى اقل حادث جرى لزنكي في هذه السنة ، مما يدل على انه ربما كان منصرفا فيها الى اقرار اموره الداخلية وتثبيت دعائمه وتنظيم ادارته وما يليها .

٢٨ . عماد الدين زنكي والاكراد الهكارية سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ ـ ١١٤٣ م

بقي زنكي بعد اخضاعه داود سقمان واستيلائه على قلعة بهمود هادئا لا تسمع له صوتا حتى ادركته سنة ٥٣٧ هـ اذ ملّ السكينة والراحة ، فأخذ يفتش عن حرب يرضي بها شهوة نفسه الجامحة ، فوجد في الاكراد الهكارية ما يروي غليله من القتال . وكان هؤلاء على ما يقوله صاحب ملوك الموصل "قد اكثروا في الارض الفساد" . [٢] فجهز جيشا قاده بنفسه الى بلاد الهكارية ، وحاصر قلعة (أشب) الشهيرة وهي من اعظم حصونهم وامنعها "وبها اموالهم واهلهم" [٣] ، وضيّق الحصار على من فيها ، وقطع عنهم الارزاق حتى اضطرهم الى التسليم ، فدخل الحصن واعمل في اهله السيف ، ثم امر بتخريبه وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنه . وقد سميت القلعة بالعمادية نسبة الى عماد الدين زنكي .

وبعد ان تمّ لزنكي فتح قلعة أشب وتخريبها ، طلب من صاحب (آمد) ان ينفصل عن صاحب الحصن ركن الدولة داود ، وأن يقطع معه كل علاقاته ، وينتمي اليه ويخطب له ، فأجابه الى ذلك رهبة وجزعا وصار في طاعته . [٤]

٢٩ . ملك عانة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

واذ فرغ زنكي من حروبه في الشرق مع الاكراد بلغه ان مدينة عانة

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣٢   ٢ . ملوك الموصل ١١٤
٣ . ابن الاثير ١١ : ٣٧   ٤ . ملوك الموصل ١١٥

قد ثارت عليه وان اهلها شقوا عصا الطاعة واعلنوا ثورتهم عليه [1] ، فلم يكن منه الا ان أرسل جيوشه اليها وملكها وخضع اهلها واعادهم الى طاعته . وتختلف المصادر في تاريخ استيلاء زنكي على مدينة عانة ، فمن المؤرخين من يجعلها في سنة ٥٣٧ هـ كصاحب الروضتين [2] ، ومنهم من يجعل ذلك سنة ٥٣١ هـ كابن القلانسي [3] ومنهم من يجعل ذلك في سنة ٥٢٨ هـ كصاحب ملوك الموصل [4] ، وابي الفداء [5] ، وابن الوردى [6] ونحن اميل الى ان الحادث حدث سنة ٥٣٨ هـ ، وحجتنا في ذلك المفاضلة بين الرواة من ان ابن الاثير اقرب الى الاصلية من غيره من الرواة اذ هو اقدم المؤرخين الذين نرجع اليهم في ذكر سيرة عماد الدين ، اضف الى ذلك ان ابن الاثير يستقى اكثر اخباره عن والده ، ووالده كان وزيرا لدى عماد الدين ، وكان عائشا في البلاط الاتابكي ، فهو من هذه الناحية افضل من سواه ، اذ يستند الى مرجع رسمي . ولعلّ الصواب يكون خلاف ذلك الا ان ما يتراءى لنا الان في هذه الحادثة ان نميل الى رواية ابن الاثير ، فنقول ان تاريخ استيلاء عماد الدين زنكي على مدينة عانة كان في سنة ٥٣٨ هـ .

٣٠ . توتر العلاقات بين زنكي ومسعود سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤م

كان السلطان مسعود لما افضت السلطنة اليه لا يزال الامراء والاكابر واصحاب الاطراف يخرجون عن طاعته ، وكان كلما انشق عليه اميداوحدث حادث نسبه الى عماد الدين وظن انه هو الذى اشار به وسعى فيه لعلمه ان جماعة الامراء لا يخرجون عن رأى زنكي [7] وارادته ، لما اتصف به من التعقل في الامور والاتزان في التصرف ، في الامور السياسية والحربية والادارية . ولعل السلطان مصيب في رأيه لان زنكي كان في الواقع يقوم بشتى انواع المناورات ، ويقود تلك الحركات والمؤآمرات على السلطان ليشغله عن شأنه وفتوحه [8] ، فلا يترك له مجالا للتدخل في شؤونه . وكان السلطان مسعود يتحيّن الفرص المناسبة ليحمل على زنكي ويضرب

---

١ . ابن القلانسي ٢٨٠ ٢ . الروضتين ٣٦ ٣ . ابن القلانسي ٢٨٠
٤ . ملوك الموصل ١١٨ ٥ . ابي الفداء ٣: ١٦ ٦ . ابن الوردى ٢: ٤٤
٧ . ملوك الموصل ١١٥ ، ابن الاثير ١١: ٣٨ ٨ . ابن الاثير ١١: ٣٨ ، ملوك الموصل ١١٥

على يده . فوجد في سنة ٥٢٨ هـ من رتبه فرانا ليقوم بغاراته على زنكي [1] .
حتى اذا انتصفت سنة ٥٢٨ هـ ، جمع السلطان مسعود عساكره وتأهب للرحيل .
فبلغ الاخبار الى زنكي ، فأدرك ذلك انه لم يعد في وسعه وحده ما يستطيع به
ان يقاوم عسكر السلطان ، وفكّر زنكي في الموقف زمنا من الزمن ، فلم يجد اولى
من ان يراسل السلطان ويسأله اليه الصلح والامان [2] ، وتبودلت الرسائل بين
الفريقين زمنا وتجاوز ذلك زنكي الى رسل كان يبعث بهم الى السلطان يستعطفه
ويستميله [3] ، فارسل اليه السلطان ابا عبد الله بن الانباري [4] ، يحمل معه شروط الصلح
الآتية : [5]

١) ان [illegible] السلطان مسعود
٢) ان [illegible] نفسه في خدمة السلطان مسعود

[illegible]
[illegible] السلطان [illegible]
مشترطا عليه فتح الرها [7] . ولعل الدافع الرئيسي الذي حدا بالسلطان مسعود لان
يتساهل في شروط الصلح الى هذا الحد ، وان يقبل اعتذار زنكي عن الحضور
لخدمته ما كان يخشاه بلاد الموصل من الاخطار اذ قيل له "ان تلك البلاد
لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين فانها قد وليها من قبله
مثل جاولي ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي ، وغيرهم ، من الامراء وكان السلاطين
يمدونهم بالعساكر ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد
بعد البلد الى ان وليها اتابك فلم يمده احد من السلاطين بفارس ولا بمال
ومع هذا فقد فتح من العدو عدة حصون ." [8] اضف الى ذلك ان السلطان مسعود
بالرغم من كل ما حدث له من زنكي كان واثقا من اخلاصه له وذلك لان الابن
الاكبر للشهيد المدعو بسيف الدين غازي كان في خدمة السلطان مسعود بأمر

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣٨ ، ملوك الموصل ١١٥ ، ابو الفداء ٣ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤
الروضتين ٣٦ ٢ . ملوك الموصل ١١٦ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
٣ . ابن الاثير ١١ : ٣٨ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٣٨ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٣٨ ،
ملوك الموصل ١١٦ ، الروضتين ٣٦ ٦ . ملوك الموصل ١١٦ ، الروضتين ٣٦
٧ . ملوك الموصل ١١٦ ، ابن الاثير ١١ : ٣٨ ، الروضتين ٣٦ ٨ . ملوك الموصل ١١٦

والده[1]، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به[2]. وقد حدث ان ارسل اليه والده زنكي سرا يأمره بالهرب وموافاته بالموصل[3]، وارسل في نفس الوقت الى نائبه في الموصل نصير الدين جقر بأمره بمنعه من دخول الموصل ومن المسير اليه اينما[4]. فنزل سيف الدين عند ارادة والده وترك السلطان مسعودا واتاه الى الموصل فمنعه نائب والده فيها من دخولها، فسأله ان يسمح له بالسير الى والده فأبى ذلك ايضا طالبا منه ان يستأذن والده قبل ان يغادر الموصل اليه. وكان الامر كذلك. فلما بلغت الرسالة عماد الدين ارسل الى ولده جوابا يلومه فيه على ما اقدم عليه من الخروج على امر السلطان، ويطلب منه ان يعود في الحال الى السلطان مسعود ويدخل في خدمته وطاعته[5]، وارفق ابنه برسول آخر من قبله يحمل الى السلطان مسعود كتابا، مفاده كما رواه صاحب ملوك الموصل "بلغني ان ولدي فارق خدمتك بغير اذني ثم اجتمع به وسيرته الى خدمتك".[6] فحصل بهذا عند السلطان محل القبول والمودة وكان هو اكبر عوامل تساهل السلطان في امر صلحه مع زنكي.

٣١. زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

وفي هذه السنة[7] وبعد ان تم الصلح بين عماد الدين زنكي وبين السلطان مسعود، وعاد الاخير الى بغداد، سار زنكي الى ديار بكر فاستولى عليها، فحاصر فيها عدة حصون وفتح عدة بلاد تذكر منها المصادر مدينة (طنزة)[8] و(اسعرد)[9]، ومدينة (المعدن)[10] من بلاد ارمينة، ومدينة (حيزان)[11] وحصن (الدوق)[12] (وحصن فطليس)[13] وحصن (باتيسة)[14] وحصن (ذي القرنين)[15].

ثم سار من ديار بكر بعد ان وطد اقدامه فيها، الى ان جاز حدودها وبلغ ماردين فملك حصون (جملين[16]، والموزر[17]، وتل موزر[18]) ونظم اداراتها تاركا فيها من يحفظها ويقوم عليها[19]. ثم سار عنها الى مدينة آمد[20] فحصرها ثم ملكها وبعدها سار عنها الى مدينة حاني[21] فحصرها وملكها ايضا بعد ان دوّخها.

---

١. ملوك الموصل ١١٧ ٢. ملوك الموصل ١١٧ ٣. ملوك الموصل ١١٧ ٤. ملوك الموصل ١١٧ ٥. ملوك الموصل ١١٧ ٦. ملوك الموصل ١١٧ ٧. ابن الاثير ١١: ٣٩، ملوك الموصل ١١٧، ابو الفداء ٣: ١٦، ابن الوردي ٢: ٤٤ ٨. ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ٣: ١٦، ابن الوردي ٢: ٤٤ ٩. ابن الاثير ١١: ٣٩، ملوك الموصل ١١٧ ١٠. ملوك الموصل ١١٧ ١١. ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ٣: ١٦ ١٢. ابن الاثير ١١: ٣٩، ابن الوردي ٢: ٤٤ ١٣. ملوك الموصل ١١٨ ١٤. ابن الاثير ١١: ٣٩

٠٣٢ زنكي وفتح الرها ٥٣٩ هـ = ٢٥ كانون الاول ١١٤٤م

لقد سرنا وزنكي في فتوحه البلدان وتدويخه الامصار، وحصاره القلاع واخضاعه الحصون. سرنا واياه من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب، ووقفنا واياه عند فتوحه في ديار بكر وماردين. ولم يكن زنكي ليكتفي بكل ما اصابه من الفتوح والغنائم، بل كان خياله دائما وابدا يتّسع لاكثر من نطاقه، كان ينظر الى ابعد مما كان ينظر اليه القانع، لذلك لم تمض عليه سنة الا وعجّت باخبار فتوحه وحصاراته، بل قد لم يمضِ عليه شهر الا وتملوءه المصادر بالحوادث.

ونجده الان في سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ — ١١٤٥م يتطاول على مدينة الرها، ومدينة الرها كما يعلم الكل تشغل مكانا ساميا في الهلال الخصيب، وكان لها نصيب وافر من الحركات الفكرية التي قادها البيزنطيون والسريان في القرون الوسطى بالاضافة الى مركزها الحربي وحرمتها الدينية. كانت مركزا من اهم مراكز الاشعاع الفكري المسيحي، وبقيت لها مكانتها في الاسلام. يقول صاحب ملوك الموصل "والرها من اشرف المدن عند النصارى، واعظمها محلا، وهي احد الكراسي عندهم. فأشرفها البيت المقدس، ثم انطاكية ثم رومية، ثم القسطنطينية، فالرها [١]." كانت هذه المدينة في عهد زنكي تحت سلطة جوسلين صاحب رأي الفرنج والمقدم في عساكرهم، لما هو عليه من الشجاعة والمكر [٢]. وكان خطر الفرنج قد امتد الى ما بعدها من البلاد وكانت شرورهم لا تزال تتسع وفتنهم تشتد وتعظم وتحيط البلاد الاسلامية قاصيها ودانيها بغاراتهم وهجماتهم [٣]، وكانوا قد بلغوا شأوا بعيدا في البلاد الاسلامية، فمدّوا ايديهم على آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. يقول صاحب الكامل "وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها، وسروج، والبيرة، وسن ابن عطية، وجملين، والموزر، والقرادى [٤]." وكان عماد الدين محيطا بكل ذلك، عالما بكل ما يدور في هذا القطر العربي، ولم يكن ليرضى

---

٠١٥ ابن الاثير ١١: ٣٩، ابن الوردى ٢: ٤٤ ٠١٦ ابن الاثير ١١: ٣٩

٠١٧ ملوك الموصل ١١٨، ٠١٨ ملوك الموصل ١١٨ ٠١٩ ملوك الموصل ١١٨

٠٢٠ ملوك الموصل ١١٨ ٠٢١ ملوك الموصل ١١٨ ٠١ ملوك الموصل ١١٨

٠٢ ابن الاثير ١١: ٤٥، ابن خلكان ١: ٢٧٢، الروضتين ٣٦، الحريرى ٥٨

٠٣ ابن الاثير ١١: ٤٠، ملوك الموصل ١١٨—١٢٥، الروضتين ٣٦

٠٤ ابن الاثير ١١: ٤٠

ان يعبث اهل الرها بمقدرات البلاد الاسلامية، ويعيثون بها فسادا ، وكان زنكي يعلم الى جانب هذا انه اذا اعلن حصار الرها ، وقاد جيوشه اليها ، ترك المجال الى الفرنج ليتجمعوا ويصدّوا هجماته ، فيتعذر عليه ملكها ، لما هي عليه من الحصانة . لذلك اراد ان يفتحها عن غير هذا السبيل ، عمد الى الحيلة والخداع ، فذهب الى ديار بكر واخذ يقارع اهلها وينازلهم ويقاتلهم ويحاصر حصونهم ليوهم الفرنج انه ليست غايته الرها ، وانما غايته ديار بكر[1] . فاطمأن جوسلين الى ان جيوش زنكي انما هي منصرفة عنه الى حروب داخلية ، وان زنكي لا يفكر في حروب الرها وحصارها . وعلى ذلك فارق جوسلين مدينة الرها قاصدا بلاده الشامية لتقرير اعمالها ، راكنا الى ان زنكي مشغول عنه بحرب اهل ديار بكر ، وانه ليس لديه من فراغ الوقت ما يقدم به على حصار الرها .[2]

جاءت عيون زنكي المنتشرة في الرها تخبره الخبر بسفر جوسلين وتوصيه باغتنام الفرصة قبل فواتها ، وكان زنكي بالمرصاد ينتظر مثل هذا الخبر ، فنادى بالجند ، فاجتمعوا ، وتقدم اليه الامراء يتلقون اوامره[3] . ويذكر ابن الاثير في كامله قصة تقع في هذا الموضع وهي انه عندما اجتمع الامراء الى زنكي امر بتهيئة الطعام ، وقال لا يقرب المائدة إلّا من يطعن غدا معي بباب الرها ، فلم يتقدم اليه غير امير واحد وصبي لا يعرف ، لما كان لزنكي من الرهبة والخشوع في صدر رجاله . " فقال الامير ما انت في هذا المقام ؟ فقال زنكي دعه فوالله اني ارى وجها لا يتخلف عني ."[4] وبعد ان احتشد الجيش ، وتهيأت العدة ، امر زنكي بالسير فسار العسكر يتلو بعضها بعضا ، زاحفين نحو الرها .

سارت اخبار الهجوم في البلاد وآفاقها ، فسارع الفرنج فيها للتجمع والقتال ، وصد غارة المسلمين عن البلد . ويذكر ابن الاثير في ملوك الموصل ان اتابك عماد الدين عند وصوله الى الرها ، راسل اهلها ، يبذل لهم الامان ليسلموه المدينة سلما دون ان يلجأ الى ضربها وتخريبها ، فأبوا الا القتال . فضرب عليهم الحصار ، وسلّط عليهم المجانيق ، وظلّ في حصارهم ثمانية وعشرين يوما[5] ، كان يرسل

---

١. ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، الروضتين ٢ : ٣٧ ، الحريري ٥٨ ٢. ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٧٩ ، ستيفنسن ١٤٩ ٣. ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨ـ١٢٥ ، الروضتين ٢ : ٣٧ ، الحريري ٥٨ ٤. ابن الاثير ١١ : ٤٠ـ٤١ ٥. ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨ ـ ١٢٥ ، كرد علي ٢ : ١٣

في خلالها النقابين ينقبون السور ليفتحوا فيه ثغرا ينسل منه الجنود الى المدينة[1] ويظهر ان عمل النقابين قد نجح ففتحوا عدة ثغر في السور والقوا منها النار ثم تبعهم الجنود ودخلوا المدينة عنوة وقهرا . كان ذلك في شهر جمادى الاخرة من سنة ٥٣٩ هـ ٢٥ كانون الاول سنة ١١٤٤م حين القت المدينة سلاحها مستسلمة للقضاء الجائر، خاضعة لحكم البطل عماد الدين زنكي .[2]

وتذكر المصادر ان زنكي فعل فيها ما يفعله الفاتحون في بلاد الاعداء من نهب وسلب وسبي[3] "فنكس صلبانها ، واباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها ، وملأ الناس ايديهم من النهب[4] ." ولكن يظهر ان أتابك ندم على ما قام به جنوده من النهب والسلب والتخريب في هذه المدينة الجميلة فأمر بأعادة ما سلبوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم و"أعادة ما غنموه من أثاثهم وامتعتهم ."[5] فردت الغنائم الى اهلها ولم يفقد الا القليل[6]، وعادت المدينة عامرة بعد خرابها واعاد اهلها الى الاستقرار والاطمئنان بعد الاضطراب والهول والفزع .

وعمل زنكي بعد ذلك على اقرار الادارة الجديدة ، وترتيب العسكر والجنود لحفظ المدينة من غارات الفرنج[7] . وبعد ان استقر الامر له فيها نهائيا سار عنها الى ما كان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرى ، فاستولى على مدينة سروج[8] ، وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .

ويظهر لنا من خلال المصادر انه كان لفتح الرها دوي كبير في الاصقاع وأثر عظيم في شخصية زنكي نفسه . فقد زاده هذا الفتح مقاما فوق مقامه ، واجلالا فوق اجلاله . ملك اليه حب اتباعه ، وصب عليه فزع اعدائه . واستحق زنكي بعد هذا النصر المبين ، وبعد هذا الفتح العظيم ، لقب "بطل الاسلام" او لقب "الشهيد" . يقول ستيفنسن ما ترجمته "لقد عظمت منزلته بعد اخذه الرها ، واستحق زنكي تقدير الناس ، فرغبوا بتلقيبه بالشهيد او بطل الاسلام ." وهنأه القيراني بقصيدة منها

سمت قبة الاسلام فخرا بطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده[9]

---

١ . ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨–١٢٥ ، ابن القلانسي ٢٧٩ ، الحريري ٥٨–٥٩ ستيفنسن ١٥٠

٢ . ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨ ، ابن خلكان ١: ٢٧٢ ابو الفداء ٣: ١٢ ، الروضتين ٣٦ ، كرد علي ٢: ١٢ ، ابن القلانسي ٢٧٩ ، باركر ٥١ ستيفنسن ١٥١ ، الموسوعة ٤: ١٢٢٥

٣٣٠ حصار زنكي قلعة البيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

لما فرغ الشهيد من اخذ الرها ، واصلاح حالها ، والاستيلاء على ما وراءها من البلاد ، سار الى قلعة البيرة وهي حصن حصين مطل على نهر الفرات ، خاضع لسلطان جوسلين ملك الفرنج [١] . ضرب زنكي حصاره على القلعة المذكورة ، وقطع عن اهليها الميرة ، وكاد يتم له فتحها لو لا ان جاءه نبأ مقتل نائبه نصير الدين جقر بالموصل ، فاضطر لان يرحل عنها [٢] . فرحل وتقدمت جيوش حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين من القلعة ، فسلمها اهلها اليه خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيخضعها قهرا .

٣٤٠ مقتل نصير الدين جقر ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

لا نرى بأسا في هذه المناسبة من أن نذكر شيئا من خبر مقتل نصير الدين جقر نائب عماد الدين في الموصل ، لا لأهمية الخبر بحد ذاته ، ولكن لما له من العلاقة الوثيقة بالبطل الذى نحن بصدده ، ومن التأثير على سياسته وادارته وفتوحاته . فقد رأينا انه على اثر بلوغه خبر نعي نائبه اضطر لان يرفع الحصار عن البيره [٣] ويرحل عنها .

كان ذلك في ذى القعدة من سنة تسع وثلاثين بعد الخمسمائة هـ [٤] حين تناقل الافاق خبر مقتل نصير الدين بمؤآمرة دبرها عليه الملك الب ارسلان [٥] ، المعروف بالخفاجي ، سببها ان اثار بعض اعوان الب ارسلان حفيظته على النائب المذكور ، وحسّنوا له قتله لما يناله بعد ذلك من ملك الموصل وما اليها [٦] ، فلقي ذلك من الملك اذنا صاغية ، وارسل الى نصير الدين من يقتله ويرمي رأسه الى

---

٣٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، ستيفنسن ١٥١ ٤٠ ملوك الموصل ١٢٥
٥٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ٦٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، الحريرى ٥٩
٧٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ستيفنسن ١٥١ ٨٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٧
كرد علي ٢ : ١٣ ، ستيفنسن ١٥١ ٩٠ الروضتين ٤٩٩
١٠ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، الروضتين ٤٠ ٢٠ ابو الفداء ٣ : ١٧ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، الحريرى ٥٩ ٣٠ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردى ٢ : ٤٥ ، الروضتين ٤٩٩
٤٠ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردى ٢ : ٤٥ ٥٠ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابو الفداء ٣ : ١٧
٦٠ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابو الفداء ٣ : ١٧

اصحابه . ولكن شيئا مما كان يؤمله الب ارسلان من نتيجة ذلك لم يحصل ، بل كان الامر على خلاف ما قد أمّل ، ذلك ان الب ارسلان صعد بجيوشه الى قلعة الموصل على اثر نصيحة اسداها اليه الشهرزوري[1] ، على انه لم يلبث الملك ان وصل القلعة حتى احاط به من بها من اتباع زنكي وسجنوه ، وقتلوا من تآمر على حياة نصير الدين جقر ، نائب الشهيد على الموصل ، ثم ارسلوا عيونهم الى عماد الدين يعلمونه الخبر ، فسكن روعه ، فعيّن شرف الدين ابن اخت نصير الدين المقتول ، واليا على الموصل ، خلفا لخاله وارسله اليها ولكنه لم يعطه امرا خطيا في ذلك حتى اذا وصل شرف الدين هذا ابواب القلعة ، منعه نقيبها المدعو (حسن)[2] من دخولها ما لم يكن مرفوقا بمنشور عماد الدين وعلامة تسليمه . ثم ترددت الرسل بينهما ، وانتهى الامر بان اذن له بالدخول ، ولكن بينما هو على اهبة دخول القلعة اذا بغبرة تتراءى من بعد ، تتصاعد الى السماء ، فاقام الناس ينتظرونها ، فاذا هي تتكشف عن زين الدين علي كوجك[3] جادا لتكون النيابة له في القلعة عوضا عن شرف الدين لامر ارتآه عماد الدين بعد توليته شرف الدين امر الموصل . ولم تذكر المصادر الاخرى خبر هذا الاستئناف والاستدراك ، ولعله في نظرنا ان زين الدين كان في نظر اتابك اجدر بالولاية واحق بالنيابة من شرف الدين فآل اليه الامر من دون الاول .

٣٥ . زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م

تولى زين الدين على امر الموصل ، واقرّ الامور فيها ، واعاد الامن الى نصابه وسارت البلاد بعد ذلك في طريق السلام والاطمئنان ردحا من الزمن ، الى ان كانت سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م[4] ، اذ ارسل اتابك الى زين الدين يأمره بالرحيل الى حصن فنك المجاور لجزيرة ابن عمر[5] ، والتابع للاكراد البشنوية[6] وهو على ما يقوله صاحب ملوك الموصل "حصن من امنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله

---

١ . ملوك الموصل ١٢٦ — ١٢٩ ٢ . ملوك الموصل ١٢٧ ٣ . ملوك الموصل ١٢٨
٤ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، مقريوس ١٨٤ ، ستيفنسن ١٥١ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦
٦ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦

سرب الى عين ماء."[1] وكان الدافع الرئيسي الذى دفع زنكي لحصارها ما يذكره ابن الاثير من ان "زنكي كان لا يريد ان يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطا."[2] نزل النائب زين الدين عند امر زنكي ، فجمع جيشا كثير العدد ، كامل العدة ، من الفرسان والمشاة ، وسيّره نحو الحصن ، فضربوا عليه الحصار ، وضيقوا على اهله ، ومنعوا عنهم الميرة وهم صابرون . واقاموا على حصاره مدة كادوا ان ينتصروا فيها على الحصن واهله ، لو لا ان اتتهم آخبار مقتل عماد الدين زنكي ، باعث القوة فيهم ، ففتت في ساعدهم ، وفرّقت شملهم ، واضطرتهم الى رفع الحصار[3] وهكذا زال خطرهم عن الحصن واهله ، و"انكشف ما بهم من الضر".[4]

٣٦ . زنكي وقلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ ـ ١١٤٧ م

كانت عساكر زين الدين علي لا تزال محاصرة قلعة الفنك حين خطر لعماد الدين زنكي ان يوجّه جنوده الى حصار قلعة جعبر المطّلة على نهر الفرات[5] ، فيقضي بذلك على مركز من اهم مراكز اعدائه ، والقائمة في بلاده ، ويخلّص العالم الاسلامي من خطره ، هذا الدافع الذى دعاه لحصار قلعة فنك ، يدفعه هنا ايضا لحصار قلعة جعبر[6] . وقلعة جعبر هذه كانت بيد سالم بن مالك العقيلي سلّمها السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب ، فلم تزل بيده وبيد اولاده الى هذه السنة[7] . وكان يطلق على هذه القلعة اسم "الدوسرية"[8] ويقول ابن الغزى في معرض كلامه عن القلعة التي نحن بصددها "واسمها الدوسرية ، وجعبر هو سابق الدين القشيرى النميرى ، شيخ اعمى طال مكثه في هذه القلعة فنسبت اليه."[9]

---

١ . ملوك الموصل ١٢٩   ٢ . ابن الاثير ١١ : ٤٤   ٣ . ابن الاثير ١١ : ٤٤

٤ . ملوك الموصل ١٣٠   ٥ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ستيفنسن ١٥١ ، ويقول ياقوت " قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ". ياقوت ٣ : ١٨

٦ . ملوك الموصل ١٣٠   ٧ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦

٨ . ابن القلانسي ٢٨٤   ٩ . ابن الغزى ١ : ٤٨٥

لقد كان ذلك في غضون سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م[1] حين سار عماد الدين زنكي على رأس جيوشه الجرارة لمحاصرة هذه القلعة · ولقي زنكي الحصار عليها بنفسه هو، واخذ ينازلها، ويقاتل من بها[2]، ردحا من الزمن، على ان قوة زنكي لم تفعل شيئا امام هذا الحصن الحصين، وجد أن الفشل لازم هجماته الاولى، فجنح في فتحها الى سياسة أخرى · عمد الى المراسلة والترغيب لعلّ ذلك يفتح له الحصن صلحا · والتفت حوله يفتش عن رجل يقوم له بهذه المهمة فلم يجد اجدر واحسن من الامير حسان المنبجي للقيام بهذا الامر، وكان بين حسان هذا وبين صاحب قلعة جعبر مودة وصداقة، فأراد ان يستغل زنكي هذه الصداقة، فارسل الى حسّان يأمره بالمسير الى صديقه صاحب حصن جعبر ويطلب اليه باسم زنكي التسليم لقاء اقطاع وافر وعطاء كثير، فان أجاب لذلك امن ماله وحياته، والّا حمل عليه زنكي حملة لا يجد لنفسه منها مخرجا، وملك القلعة عنوة واتى على اهلها بما يريد ويرغب ·

سار حسّان المنبجي بهذه الرسالة الى صديقه صاحب الحصن، وظل واياه مدة يقنعه بوجوب التسليم، ولكن تهديد زنكي لم يزد صاحب الحصن الآ اصرارا على القتال، وامتناعا عن التسليم · فعاد حسان خائبا، واخبر الشهيد بما قد حدث له ·[3] فلم يجد زنكي بعد ذلك بدا من المثابرة على حصار القلعة ومحاولة فتحها عنوة · فشدد عليها الخناق، وكاد ينتهي به الامر الى اخضاعها لولا ان عاجلته منيته، فقضي وهو في الحصار، بين دوي المجانيق، وضرب الرماح والطعن بها، وصليل السيوف، فتفرق جيشه، وتفككت عراه، بعد ان قتل رئيسه وقائده وحاميه · فعاد الجيش خائبا، كما انسحب الجيش الذي كان محاصرا لقلعة نجك[4]

١· ابن الاثير ١١: ٤٤، ملوك الموصل ١٣٠، ابن الغزى ١: ٤٨٦، ابو الفداء ٣: ١٨ ابن الوردى ٢: ٤٦، ابن القلانسي ٢٨٤، ستيفنسن ١٥١، الموسوعة ٤: ١٢٢٥

٢· ابن القلانسي ٢٨٤، ملوك الموصل ١٣٠، ابن الاثير ١١: ٤٤، ابو الفداء ٣: ١٨ ابن الوردى ٢: ٤٦

٣· ابن الاثير ١١: ٤٤، ملوك الموصل ١٣٠، ابو الفداء ٣: ١٨، ابن الوردى ٢: ٤٤ ابن الغزى ١: ٤٨٦

٤· ابن الاثير ١١: ٤٤، ملوك الموصل ١٣١، ابن خلكان ١: ٢٧٢، القرماني ٢٧٩، ابن الوردى ١: ٤٦، ابو الفداء ٣: ١٨، ابن الغزى ١: ٤٨٦ ابن القلانسي ٢٨٤، ستيفنسن ١٥٢

٠٣٧ مقتل عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٧ م

كان ذلك في ربيع الاخر من سنة ٥٤١ هـ ٠ لبعض ليال خلين من هذا الشهر قد لا تتجاوز الخمسة على قول اكثر المصادر العربية والفرنجية التي عنيت بهذا الموضوع ٠[1] ويكاد ابن خلكان ينفرد في رواية يزعم فيها ان مقتل الشهيد كان لخمسة عشر يوما خلت من ربيع الاخر، بينما هو يتفق بتفاصيل الرواية مع بقية المصادر ٠ ولا اعتقد انه من الصعب ان ابت في امر كهذا ، فأميل عن رواية ابن خلكان وارجح الروايات الاخرى ، لا سيما وان ابن الاثير اقرب المؤرخين الى الحادثة يعين لنا التاريخ في ٥ ربيع الاخر سنة ٥٤١ هـ واذا زدنا الى ذلك ان ابن الاثير اخذ روايته عن ابيه وان اباه كان شاهدا عيانا حضر بنفسه مقتل الشهيد ، رجحت ولا شك كفة روايته على رواية ابن خلكان ٠ واذا ما اردنا تفسير هذا الاختلاف البسيط ، فحسبنا من ذلك الظن بأن ابن خلكان عند ما نقل الرواية عن ابن الاثير او سواه ، كان اخذه خاطئا ، فاخذ في النقل خمسة عشر يوما عوضا عن خمسة ايام ، وقد يحدث مثل هذا الخطأ كثيرا ٠

كان زنكي في حصار قلعة جعبر[2] يقاتل اهرافها النهار وينصرف الى فراشه آناء الليل ٠ فبينما هو في الليلة الخامسة من شهر ربيع الاخر ٥٤١ هـ = ٢٤ سبتمبر ١١٤٦ مستغرق في سبات عميق ، اذ دخل عليه نفر من مماليكه وانقضوا عليه وقتلوه غيلة دون ان يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم الى القلعة واخبروا اهلها بمقتل الشهيد ٠ ولم يلبثوا حتى انتشر الخبر الاليم بين جيش الشهيد نفسه ، فأخذ اصحابه رعشة وكادوا لا يصدقون ما سمعوا واسرعوا اليه يتحققون من الخبر ودخلوا خيمته ، فاذا هو يعالج النزع الاخير ٠ وكان بين من دخل عليه بعض خواص والد ابن الاثير ، فادركوه وبه رمق ، وحاولوا سؤاله عن الامر ، فلم يطق المقتول كلاما ، وامتنع عن الجواب حتى فاضت روحه ٠

---

٠١ ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣١ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٨ ، الروضتين ٤٢ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الحريري ٥٩ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥

٠٢ ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ملوك الموصل ١٣١ ، الروضتين ٤٢ ، القرماني ٢٧٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ستيفنسن ١٥٢

يقص هؤلاء حين عودتهم خبر مقتل هذا الشهيد الى والد ابن الاثير، وابن الاثير هذا كان يتعاطى التأريخ فيثبت لنا الرواية بين صفحات كتابيه ملوك الموصل والكامل في التاريخ كما سمعها عن والده . ولا بأس من ايراد هذا الخبر بنصه كما كتبه ابن الاثير . يقول ابن الاثير في معرض بحثه عن مقتل الشهيد ان والدى قد روى لي هذه الرواية بناء على رواية احد خواصه اذ كان شاهد عيان فقال — ادركته وهو في السياق ، فحين رآني ظن اني اريد قتله فأشار الي باصبعه السبابة ، فوقفت من هيبته وقلت له : يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله؟ فلم يقدر عن الكلام وختم الله بالشهادة اعماله ، وفاضت منه نفسه ، وسكن رمسه ، واصبح معدوما كأن لم تغن بالامس ، وزال عنه الملك ولم يغن عنه اصحابه وعساكره . فقال فيه بعض الشعراء :

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه	قسمان بين الكرّ والاقدام
يلقي الكتائب مفردا بكتائـــب	من نفسه واليوم يكدرحامي
لا يرعوى عن ان يقارع وحـده	الفا بابيض صارم صمصام
يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه	وبرأيه وبعزمه المقــدام
حتى اذا الاجل انقضى مستكملا	ما خطّ في الالواح بالاقلام
لاقى الحمام ولم يكن مستيقنـــا	ان الحمام سيبتلي بحمام

وهاج الجند وماج ، تتقطع نفسه على فقد قائده ، وراح الناس يضربون اخماسا باسداس يقدّرون من القاتل . فقد قتله المتآمرون وفروا ولم يرهم احد الا ان القاتل من غلمانه ومماليكه ولا شك ، اذ لا يجسر على الدخول عليه ليلا في مثل هذه الساعة الآ خواصه من غلمانه[1] فمن يكون هذا المملوك الذى اقدم على قتله ؟ تسكت كل المصادر عنه ، لا لتستر عليه فضيحته بل لجهلها به وباسمه وشخصه . على ان ابن القلانسي وصاحب الروضتين لم يتورعا عن ذكر اسم القاتل فهو في زعمهم رجل افرنجي الاصل يعرف (ببرتقش) "قتله لحقده عليه"[2] ويزيد صاحب الروضتين على ذلك "ذبحه برتقش وخرج ومعه خاتمه".[3]

---

١. ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ملوك الموصل ١٣١ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ كرد علي ٢ : ١٦ ، الحريرى ٥٩

٢. ابن القلانسي ٢٨٤ ٣. الروضتين ٤٢

وكما ان الروايات تختلف بعض الاختلاف في امر تعيين القاتل ، كذلك تختلف بعض الاختلاف في امر دفن الرجل وموضع دفنه • يدّعي اكثر المؤرخين ان الشهيد بعد ان قتل احتمله اصحابه الى الرقة ودفنوه فيها بعد ان اقاموا له مراسيم الجنازة والدفن •[1] على ان ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل[2] وابن خلكان[3]، وابن القلانسي[4] ، يزعمون ان الشهيد حينما اغتاله مماليكه ،احتمله اصحابه الى صفين ، على ضفاف الفرات ، ودفنوه فيها • يقول ابن الاثير "ولما قتل دفن في صفين عند اصحاب امير المؤمنين علي عليه السلام ، ولقد بلغني انه اجتاز بها وزار مشاهدها ، ثم قال — وددت اني شهدت صفين بعسكرى مع امير المؤمنين حتى كنت اريه القتال الذى تعجز اصحابه عنه ، ولكل امرئ ما نوى •"[5]

على ان من يتدبر في الامر قليلا ، ويتابع الحوادث، يجد ان هذه القتامة التي تحيط بامر دفن الشهيد ، لا تلبث ان تنقشع ويظهر صدق الفريقين من المؤرخين • ذلك ان عماد الدين زنكي دفن في صفين وفي الرقة • دفن في صفين اولا ، ثم عندما استتب الامر لابنه نور الدين زنكي احتمله الى الرقة حيث اقام له مقاما خاصا ، ونقل اليه رفاته[6]، وهكذا نختم البحث بان الشهيد دفن اولا في صفين ثم نقل الى الرقة حيث مقره الاخير •

٣٨ • سيرة عماد الدين زنكي

لقد القينا فيما سلف نظرة عامة على اعمال عماد الدين زنكي الحربية واستوفينا بعض الاستيفاء معظم الاحداث التي تحيط بحياته • لا نقول اننا استوعبنا كل ما يجب ان يقال فيه من ناحية اعماله الحربية ، واننا وفيناه حقه من البحث ، بل اني اظن ان هناك كثيرا من الاخبار ، وكثيرا من الاحداث التي لم تأت المصادر على ذكرها ، اما لانها لم تستلفت نظر المؤرخين ، او لانها تقع منهم موقع الجهل • وما دامت المصادر التاريخية مقصّرة في تاريخ سيرته من هذا القبيل ، فلا ينتظر منا

---

١ • القرماني ٢٧٩ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٦ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، الحريرى ٥٩ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦
٢ • ملوك الموصل ١٣١ — ١٣٦ ٣ • ص ١ : ٢٧٢ ٤ • ص ٢٨٥
٥ • ملوك الموصل ١٣٦ ٦ • ابن القلانسي ٢٨٥ ، ملوك الموصل ١٣٦

ان نزيد على ما جاء في مصادرهم شيئا ، لان معيننا الذى نستقى منه الاخبار انما هو معينهم . لذا نقول بكل صراحة ان البحث ناقص ، وبعيد عن ان يكون كاملا كالابحاث التاريخية المطلوبة .

على اننا ان نحن اعترفنا بذلك فليس القصور قصورنا ، وليس النقص نقصنا ، وانما هو قصور المصادر ، وانما هو نقص المؤرخين ، لان ابحاثهم من هذا القبيل لم تكن بالغة حد الكمال . ويمكننا ان نعلن بكل ارتياح اننا لم نترك مصدرا من المصادر المعروفة الّا واتينا على قراءته ، واستقينا من خلاله ما له علاقة بموضوعنا بحيث لم نهمل منها شيئا ، حرصا منا على الاحاطة بكل ما كتب عنه في اللغة العربية ، وباكثر ما كتب عنه في الانكليزية . وانه حقا لما يثلج الصدور ان المؤرخين لم يهتموا بتأريخ اعمال الشهيد عماد الدين زنكي الحربية فحسب ، كما عهدناه عند اكثر المؤرخين العرب ، انما هم تعدوا ذلك الى ذكر شيء عن سيرته واخباره الخاصة . بل هم في بعض الاحيان اتوا على ذكر اوصافه الخارجية ، من طول وقامة ووجه . ولا نرى بأسا ونحن نؤرخ عماد الدين من ان نثبت هنا ما جاء في المصادر عن سيرته الخاصة ليتم بذلك بحثنا .

ا ـ خلقه (اوصافه الجسدية)

اما فيما يتعلق بصفاته الشكلية الخارجية فيشهد ابن الاثير انه "كان حسن الصورة ، اسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان يميل بالطويل البائن ، تام القامة ."[1] ولا حاجة الى الترديد بما لرواية ابن الاثير من القيمة والافضلية لانه يمكن اعتبار روايته اصلا موثوقا باعتبار ان اغلب اخباره استقاها من ابيه ، وابن الاثير كان صديقا لعماد الدين ، مرافقا له في كثير من اسفاره ورحلاته ، ملازما له في اكثر الاوقات . ولقد اجمعت جميع الابحاث على هذه الصفات ، بل هي قد نقلتها عن ابن الاثير بالحرف . حتى انك اذا تصفحت جميع المصادر وجدتها تردد امثال هذه الكلمات "كان حسن الصورة ، اسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ."[2]

---

١ . ملوك الموصل ١٣٦ ، والكامل لابن الاثير ١١ : ٤٥

٢ . ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، الحريرى ٥٩

وهكذا اذا ذكرنا عماد الدين زنكي تصورنا رجلا اسمر اللون قد طبعت السنون على وجهه طابع الشيخوخة ، حتى اذا جاوزها قليلا سطت يد المنون عليه فأفقدته الحياة ، واسكنته مرقده الاخير . ولا نعرف بالضبط كم سنة عاش زنكي بعد الستين لان المصادر لا تذكر ذلك بالتحديد واليقين ، وانما هي تقول انه مات بعد ان جاوز الستين من عمره .[١]

ب - اولاده

خلّف زنكي من الاولاد خمسة ما بين ذكور واناث ، منهم اربعة ذكور وبنت واحدة ، لا تأتي المصادر على ذكر اسمها . اما البنون الاربعة فهم (سيف الدين غازى) وهو الذى ولي حكم الموصل بعد ابيه القتيل الشهيد ، و (نور الدين محمود) الذى تلقبه المصادر بالملك العادل والذى تولى امر حلب ، و (قطب الدين مودود ابو الملوك) و (نصرة الدين امير اميران) .[٢]

ج - سياسته

لا يمكننا ان نحكم حكما جازما قاطعا على سياسة عماد الدين زنكي ونزعته ، اذ ان السياسة من خصائصها ان تتلوّن وتتحول بتحول الظروف . ولا يمكن لسياسي ان يستقر على حال واحدة او يتميّز بنزعة معينة ، اذ ان ذلك يتنافى مع مفهوم السياسة اليوم .

على اننا نعترف مبدئيا بأن زنكي كان رجل سياسة وحنكة ودهاء . كان لا يتأخر عن استعمال الحيلة اذا وجد لها داعيا ، وكان لا يمتنع عن استخدام الخدعة والمكر حين كانت تضطره الظروف . وقد رأينا صدى هذه السياسة ، وهذه الحنكة عندما تكلمنا عن علاقة زنكي بالخليفة انه كان يخدع الخليفة ويمكر به . واخبار ذلك كثيرة قد اتينا على ذكرها في وقتها ، لذا فلا حاجة الى ترديدها الان . وقد لاحظ المؤرخ دوكلاس هذه الناحية من سياسة عماد الدين زنكي فشهد له بالمهارة وبالمكر والخداع ، فقال "لقد كان عماد الدين زنكي ماهرا ، وخداعا ، وقاسيا ."[٣]

---

١. ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، القرماني ٢٧٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦ ، ستيفنسن ١٥٢ ، الحريرى ٥٩

٢. ملوك الموصل ١٣٦ ٣. دوكلاس ١١٨

والمؤرخون اجمع يقرون له بذلك ، فيجمعون على انه كان داهية ، عظيم السياسة[١].

ويظهر انه كانت لعماد الدين هيبة كبيرة في نفوس اتباعه ، وكان قوى الشكيمة شديد المراس ، شجاع القلب، ذا سلطان كبير على رعيته ، يتمتع بحبهم واجلالهم واحترامهم الممزوج بالخشوع والرهبة .[٢] يقول فيه كرد علي "وكانت صفاته صفات حربية راقية ، اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه وشدته."[٣] وفي الحق ان عماد الدين كان مثالا في الشجاعة " به كان يضرب المثل."[٤] ولا اعتقد ان احدا يشك بمواهب بطلنا من هذا القبيل ، ومن عرف حاله واحاطة الاعداء به ، والطامعين ببلاده والمنازعين له السلطان من كل ارب وصوب ، ثم علم الى جانب ذلك صبر زنكي ورباطة جأشه والقضاء على جميع اعدائه والاستيلاء على اكثر بلادهم ، حكم لزنكي بالبطولة والشهامة."[٥] ويذكر ابن الاثير عن والده في هذا المعنى ما نصه " كان الشهيد قدّس الله روحه قد احدق الاعداء بولايته ، والمنازعون له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله الذى سار الى الموصل وحصرها ، ومنهم السلطان مسعود في اعمال الجبال واذربيجان ، قد جاور اعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو اقوى الخلق ، واكثرهم عساكر ، واكثرهم كراهة للشهيد ، ثم الى جانبه اعمال ارمنية ، وهي بيت سكمان ، ولهم العساكر الكثيرة ، والبلاد الواسعة ، وهم اعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان والمعدن ، ثم الى جانب بيت سكمان ركن الدولة داوود بن سقمان ابن ارتق صاحب حصن كيفا ، وديار بكر وابن عمه حسام الدين تمرتاش ابن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين ، وقد جاوروا كثيرا من ولايته منها جزيرة ابن عمر ونصيبين ، ومع هذا فاخذ من بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردين الى باب دمشق قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وهم اشد ما كانوا قوة واكثر جمعا ، ومع هذا فهو يملك بلادهم ، ويحاربهم مرة بعد اخرى ثم صاحب دمشق قد جاوره بها ، ومع هذا فهو يأخذ ايضا من بلاده ، فكان يستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره ما عدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده

---

١. ابن الاثير ١١: ٤٥ ، القرماني ٢٧٩ ، الحريرى ٥٩

٢. ابن الاثير ١١: ٤٥ ، القرماني ٢٧٩ ، ابوالفداء ٣: ١٨ ، الحنبلي ٤: ١٢٨ ، الحريرى ٥٩ ٣. كرد علي ٢: ١٦ ٤. ملوك الموصل ١٥١

٥. ملوك الموصل ١٥٠ _ ١٥١

بل كان يحمل اصحاب الاطراف على الخروج عليه ، فاذا فعلوا عاد السلطان مسعود اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع ، فانظر الى هذه الشجاعة وهذا الرأى والتدبير ، ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به فانه كان بعيد الصوت في التركمان ، يجمع منهم كل من حمل السلاح وكان مع هذا شجاعا مقداما ، يفارق المعركة مهزوما ثم يعاود الحرب بعد ايام ، واما الفرنج فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم ، واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم ، والهيبة الكثيرة.[1]

وكان يجمع الى هذه الشدة والشجاعة دماثة في الخلق ، ورحابة في الصدر ، لا حد لهما ، ولعل لين عريكته ودماثة خلقه هذه هي التي حببته الى السلطان تاج الملوك وقربته منه منذ نعومة اظفاره ، حتى ان المصادر تذكر ان السلطان تاج الملوك عندما تعرّف الى عماد الدين "قدّمه على ابناء جنسه من خواصه وبطانته ، فجعله مقدم عسكره ، واستنابه في تدبير امر بعض بلاده ، وسلم اليه ولده شمس الملوك ، واعتمد عليه في تربيته وكفالته."[2]

ويقول ستيفنسن في معرض كلامه عن الشهيد عماد الدين زنكي "قد دلّت اعماله بانه شخص يعلم كيف يستخدم القوة التي بيده ، فقد كان رجلا واضح الغاية ، سريع التنفيذ لخططه ، قاسيا مع الاعداء ، رحيما للاصحاب والرعايا . وكانت الناس تخافه ، وقد تبنّى مصالحهم وكان ينشر الامن والسلام في البلاد."[3] ولعل ستيفنسن محق فيما يذهب اليه من تقريظ زنكي اذ ان المصادر العربية كلها ، وابن الاثير في زمرتها ، تصف هذه الناحية من اعمال زنكي فتكيل له المدح والثناء لما كان يبذله من الجهد والعناية في سبيل تسيير الامور ، وتسهيل المصالح ، واقرار الامن والسلام في البلاد التي كان يفتحها . اضف الى ذلك ان زنكي كان شديد العناية بالضعفاء ، يضرب على ايدى القوى ويأخذ بناصر الضعيف ، يراعي اصحاب الحق في حقوقهم ولا يخاف في ذلك لومة لائم . يقول صاحب ملوك الموصل "كانت سيرته من احسن السير ، واكثرها جزما وضبطا للامور . كانت رعيته في امن شامل ، يعجز القوى على التعدى على الضعيف . لم يتغير على احد من اصحابه مذ ملك الى ان قتل الا بذنب يوجب التغيير."[4]

---

١. ملوك الموصل ١٣٦-١٥١ — ٢. ابن القلانسي ١: ٢٧١

٣. ستيفنسن ١٢٣ — ٤. ملوك الموصل ١٣٦

ويورد ابن الاثير كثيرا من القصص التي تدلّ على نزاهة الرجل وعدله وانصافه ، لعلّ من ابلغ هذه القصص تلك التي تقرن باسم الامير عز الدين ابي بكر الدبيسي ، ومؤداها "أنه لما قدم الشهيد جزيرة ابن عمر ، وكان الزمان شتاء فنزل بالقلعة ، ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة امرائه ، الامير عز الدين ابو بكر الدبيسي ، وهو من اكابر امرائه ومن ذوى الرأى عنده ، فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار انسان يهودى واخرجه منها . واستغاث اليهودى الى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله ، فأخبره به وكان الشهيد واقفا والدبيسي الى جانبه وليس فوقه احد ، فلما سمع اتابك الخبر نظر الى الدبيسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد واخرج خيامه وامر نصبها ، ولم تكن الارض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين ، قال فلقد رأيت الفراشّين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما روءا كثرته جعلوا على الارض تبنا يقيموها ونصبوا الخيام ، وخرج اليها من ساعته ، وناهيك بهذا سياسة وانصافا ."[1]

د ـ زنكي والدين

ويظهر ان عماد الدين كان ينزع نزعة اسلامية ، ويرى ان التمسك بالدين امر لا محيص منه ، فأقبل على تعليمه ، واستمسك بعراها ، وعمل بحسبها . ومن يلق نظرة على المصادر العربية يستطيع ان يستشقّ من خلال سطورها هذا الاتجاه في الحكم على زنكي من حيث حياته الروحية . وربما كان ذلك سياسة منه لا اخلاصا وتقوى .

ومما يوءثر عنه في هذا الباب انه كان شديد الغيرة على نساء الاجناد كثير الحرص على حفظهن ، لان كثرة غياب بعولهن عنهن يسبب فسادهن ، لذلك الزم نفسه محافظتهن محافظة حقة .[٢]

هـ ـ زنكي وعمارة البلاد

لعلّ من اهم ما يقرن باسم عماد الدين زنكي من الاعمال الخاصة

---

١ . ملوك الموصل ١٣٦ ـ ١٥١

٢ . ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، الروضتين ٤٤ ، كرد علي ٢ : ١٧

عنايته الملحّة ، واهتمامه الشديد في امر تعمير البلاد بعد خرابها ، ورفعها بعد دمارها . يقول ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل "لا خلاف في ان عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدى المتطاولة الى اهلها ، ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه ، عرف مقدار ما عمر منها ، حكى لي والدى قال رأيت الموصل التي هي ام البلاد في اول ايام الشهيد واكثرها خراب ، وكان الخراب من محلة الطبّالية الى القلعة والى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني وهو قريب من الطباليين ، وكان الجامع الكبير بلا عمارة ، وكانت جميع المحال غير معمورة ، فلما طالت الايام الشهيدية ، وحمى البلاد ، ومنع المفسدين ، وكف ايدى الاقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا ."[1] ويقول منقريوس بهذا المعنى "وكانت الموصل قبل ان يملكها خرابا ، فصارت في ايامه وما بعدها اكثر البلاد فواكه ورياحين ."[2]

و ـ عماد الدين والادارة

لقد كان عماد الدين ذا خبرة ادارية كبيرة ، كما كان ذا حنكة سياسية عظيمة . كان يعرف كيف يدير البلاد ، كما كان يعرف كيف يسوسها . بلغت فيه الدقة في الامور الادارية الى حد انه كان يعلم كل ما يجرى حوله من الاعمال وليس من شاردة او كبيرة الا وكان زنكي يعلمها . فقد كانت عيونه منبثة في كل الاطراف ، تأتيه في كل وقت حاملة اليه من اخبار الامصار الشيء الكثير . ولقد ذكر ابن الاثير عن والده في هذا الصدد قصة لا بأس من ذكرها . هي قصة زيارته معسكر زنكي حين كان في حصار قلعة جعبر ، يقول :

"انني وصلت الى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بايام وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت ادخلني اليه ، فبينما انا عنده وهو يسألني عن طريق اذا وقد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاما لا اعلمه ، فقال لي جمال الدين متى وصلت ؟ ، فقلت الساعة ، فقال هذا اعجب ، تجيء الساعة ، ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك الي ، وقد ارسل

---

١ . ملوك الموصل ١٣٦ ـ ١٥١

٢ . منقريوس ١٨٥